عندما ينتصر

العفاف

قصص رجال ونساء تساموا فوق غرائزهم

إعداد

خالد أبو صالح

دار الوطن للنشر

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١م

دار الوطـــن للنشــــر - الريـــاض

الرياض ــ ص ب : ٣٣١٠ هاتف : ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) فاكس : ٤٧٢٣٩٤١

- البريـــد الإلكترونـــي: pop@dar-alwatan.com
- موقعنا على الإنترنت: www.dar-alwatan.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمـــة

الحمد لله الذي أَمَرَ بالعفاف وحثَّ على الفضيلة، والصلاة والسلام على صاحب لواء الحمد والوسيلة، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فما من شك أن العالم الذي نعيش فيه اليوم يعجُّ بالفواحش والمنكرات، ويدعو إلى الرذائل والشهوات.. ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

ومع أن كثيراً من المسلمين سقطوا في بؤر الفساد والشهوات، فإن البعض منهم ـ ولله الحمد ـ ما زالوا محافظين على دينهم وعفافهم.. وهناك صور كثيرة في الماضي والحاضر، تدلّ على عفاف أهل الإسلام وبُعدهم عن الفواحش.

إنَّ الواجب على الدعاة إلى الله عز وجل أن يُبْرِزوا تلك الصور ويُبيِّنُوها للناس؛ حتى يعلموا أن طريق العفاف ليس بالأمر العسير، وأنَّ في أهل الإسلام مَن التزم هذا الطريق وسلكه وعضَّ عليه بالنواجذ.

فعلينا أن ننشر قصص العفاف والفضيلة؛ لنُظْهِر جوانب الخير في المسلمين، ونزرعَ الثقة في قلوبهم.

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أجمع قصص أهل العفاف في الماضي والحاضر؛ ليكون ذلك داعياً إلى سلوك هذا الطريق المستقيم. . ومُنَفِّراً من سلوك طُرق الغواية والضلال. . .

أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب جامعه وقارئه والناظر فيه، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

وكتب

خالد بن مصطفى سالم

أبو صالح

الرياض، في السادس والعشرين من شهر الله المحرم
عام ألف وأربعمائة واثنين وعشرين
من هجرة المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم

❋ ❋ ❋

التحذير من فتنة النساء

* عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تركت بعدي فتنةً أضرّ على الرجال من النساء»[١].

* وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الدنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ، وإن الله عز وجل مستخلفُكم فيها لينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، وإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» انفرد بإخراجه مسلم[٢].

* وعن علي رضي الله عنه قال: أردف رسول الله ﷺ الفضل، ثم سار حتى أتى الجمرة، فرماها، فأتته امرأة شابة من خثعم، فقالت: إن أبي شيخ كبير، وقد أدركَتْه فريضة الله تعالى في الحج، أفأحجّ عنه؟ قال: «نعم». قال: ولوى عنق الفضل. فقال له العباس: يا رسول الله! لويت عنق ابن عمك... قال: «رأيت شاباً وشابة، فخفتُ الشيطان عليهما»[٣].

* وعن أميمة بنت رفيقة أنها قالت: أتيت رسول الله ﷺ في

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٠٩٦) كتاب النكاح. ومسلم رقم (٩٧، ٩٨) كتاب الذكر.

(٢) أخرجه مسلم رقم (٩٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/١٥٧). والترمذي رقم (٨٨٥) كتاب الحج. وقال: حسن صحيح.

نسوة نبايعه، فقال: «إني لا أصافح النساء»(١).

* وعن عائشة قالت: لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساء اليوم لنهاهُنَّ عن الخروج، أو حرَّم عليهن الخروج..

● قلت: هذا في زمن عائشة رضي الله عنها.. فكيف بهذا الزمان؟ نسأل الله ألا يمقتنا..

* قال بعض السلف: كان لنا جارٌ من المتعبدين قد برز في الاجتهاد، فصلىٰ حتى تورَّمت قدماه، وبكىٰ حتىٰ مرضت عيناه، فاشترىٰ جارية وكانت تُحسن الغناء وهو لا يعلم، فَبينا هو في محرابه رفعت صوتها بالغناء فطار لُبه، ورام ما كان عليه من التعبد فلم يَقْدر عليه، فقالت له الجارية: يا مولاي لقد أبليتَ شبابَك ورفَضْت لذَّات الدنيا في أيام حياتك، فلو تمتَّعت بي؟ فمال إلىٰ قولها وترك التعبد، واشتغل بفنون اللَّذات(٢)، فبلغ ذلك أخاً له كان يوافقه في العبادة فكتب إليه:

(بسم الله الرحمن الرحيم). من الناصح الشفيق والطبيب الرفيق، إلىٰ من سُلِب حلاوة الذِّكر والتلذُّذ بالقرآن: بَلَغني أنك اشتريت قَيْنةً(٣) بعتَ بها حظَّك من الآخرة، فإن كنت بعتَ الجزيلَ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٣٥٧). وابن ماجه رقم (٢٨٧٤) كتاب الجهاد. والترمذي رقم (١٥٩٧) كتاب السير مختصراً. والنسائي رقم (٤١٩٢) كتاب البيعة. وصححه الألباني وهو في «صحيح الجامع» رقم (٢٥١٣).

(٢) انظروا ـ رحمكم الله ـ إلى «خطر الغناء وشدة فتنته».

(٣) قينة: مغنية.

بالقليل، والقرآنَ بالقِيَانِ، فإني محذِّرك هاذمَ اللذات، ومنغِّصَ الشهوات، فكأنه قد جاءك علىٰ غِرَّة، فأبكَم منك اللسانَ، وهدَّ منك الأركان، وقرَّب منك الأكفان، واحتوشك[1] من بين الأهل والجيران، وأحذِّرك من الصَّيحة إذا جثَت الأُمم لملِكٍ جبَّار.

ثم طوىٰ الكتاب وبعثه إليه، فوافاه وهو علىٰ مجلس سروره، فأذهله وأغصَّه برِيقه، فنهض من مجلسه، وتاب إلى الله وعاد إلى اجتهاده حتىٰ مات، يرحمه الله[2].

* * *

مــولاي جئتــك والــرجــا ءُ قـد استجارَ بحُسْـن ظنِّي
أبغـــي فَــواضِلَــك التـــي تَمْحـو بهـا مـا كـان منِّـي
فــانظــر إلــيَّ بحــقّ لُطْفِـك يـا إلهـي واعـفُ عنِّي
لا تُخْــزنــي يــوم المعــا دِ بمــا جَنيْــتُ ولا تُهِنِّــي

في معنى العفّـة

قال الراغب الأصفهاني: «العفة: حصول حالة للنفس، تمتنع بها عن غلبة الشهوة. والمتعفف: المتعاطي لذلك بضرب

---

(١) احتوشك: أحاط بك.
(٢) «التبصرة» (١/ ٣٧٢، ٣٧٣).

من الممارسة والقهر، والاستعفاف: طلب العفة[١].

وجاء في لسان العرب: العفة: هي الكفّ عما لا يحِلّ ويجمل.. والاستعفاف: طلب العفاف، وهو الكفّ عن الحرام والسؤال من الناس. وقيل: الاستعفاف: الصبر والنزاهة عن الشيء... وامرأة عفيفة: عفة الفرج، ونسوة عفائف. وتعفف: أي تكلف العفة[٢].

وقال أبوحامد الغزالي: وأمّا العفة فهي فضيلة القوة الشهوانية، وهي انقيادها على تيسّر وسهولة للقوة العقلية، حتى يكون انقباضها وانبساطها بحسب إشارتها. ويكْتَنِفُها رذيلتان: الشره والخمود، فالشره: هو إفراط الشهوة إلى المبالغة في اللذات التي تستقبحها القوة العقلية وتنهى عنها. والخمود هو خمود الشهوة عن الانبعاث إلى ما يقتضي العقل نيله وتحصيله، وهما مذمومان، كما أن العفة التي هي الوسط محمودة.

وعلى الإنسان أن يراقب شهوته، والغالب عليها الإفراط لاسيما إلى مقتضى الفرج والبطن وإلى المال والرياسة وحبّ الثناء، والإفراط والتفريط في كل ذلك نقصان، وإنما الكمال في الاعتدال، ومعيار الاعتدال: العقل والشرع، وذلك أن يعلم الغاية المطلوبة من خلق الشهوة والغضب مثلاً، بأن يعلم أن شهوة

---

(١) «المفردات» ص(٥٧٣) مادة: (عفف).

(٢) «لسان العرب» (٩/ ٢٥٣).

الطعام إنما خلقت لتبعث على تناول الغذاء الذي يسدُّ خللَ ما ينحَلُّ من أجزائه بالحرارة الغريزية حتى يبقى البدن حيًّا والحواسّ سليمة، ليتوصل بالبدن إلى نيل العلوم ودرْكِ حقائق الأمور.

ومن عرف هذا كان قصده من الطعام التَّقَوِّيَ على العبادة دون التلذُّذ به، فيقتصر ويقتصد لا محالة، ولا يشتد إليه شرهه.

ويعلم أن شهوة الجماع خلقت فيه لتكون باعثة على الجماع الذي هو سببُ بقاء النوع محفوظاً، ليطلب النكاح للولد والتحصّن، لا للعب والتمتع، وإن تمتع ولعب كان باعثُه عليه التألُّف والاستمالة الباعثة على حسن الصحبة ودوام النكاحِ»[1].

أنــواع العفــة

قال أبوالحسن الماوردي: فأما العفَّة فنوعان:

أحدهما: العفةُ عن المحارم.

والثاني: العفةُ عن المآثم.

فأما العفة عن المحارم فنوعان:

أحدهما: ضبط الفَرْج عن الحرام.

والثاني: كفّ اللسان عن الأعراض.

فأما ضبط الفرج عن الحرام؛ فلأن عدمه مع وعيد الشرع وزاجر العقل، مَعَرّة فاضحة، وهَتْكة واضحة، ولذلك قال النبي

---

(١) «ميزان العمل» للغزالي، ص(١٠٢، ١٠٣).

ﷺ: «مَن وُقِيَ شَرَّ ذَبْذبه ولَقْلَقه وقَبقَبه فقد وُقِي»[(١)].

يريد بذبذبه: الفرج، وبلَقْلقه: اللسان، وبقَبْقَبِه البطْن.

وحُكِي أن معاوية رضي الله عنه سأل عمراً عن المروءة؟ فقال: تقوى الله تعالى، وصلة الرحم.

وسأل المغيرة فقال: هي العفة عمَّا حرَّم الله تعالى؛ والحِرفة فيما أحلَّ الله تعالى.

وسأل يزيد فقال: هي الصبر على البلوى، والشكر على النُّعْمَى، والعفوُ عند القدرة. فقال معاوية: أنت منِّي حقًّا.

وقال أنوشرْوان لابنه هُرْمُز: مَنِ الكامل المروءة؟ فقال: مَن حصَّن دينه، ووصل رحمه، وأكرم إخوانه.

وقال بعض الحكماء: مَن أحبَّ المكارم، اجتنب المحارم.

وقيل: عار الفضيحة يكدِّر لذَّتها.

وقد أنشدني بعض أهل الأدب، للحسن بن عليّ رضي الله عنهما:

الموتُ خير من ركوب العارِ　　والعار خير من دخول النارِ

واللهُ من هذا وهذا جارِي

والداعي إلى ذلك شيئان: أحدهما إرسال الطرف.

والثاني: اتِّباع الشهوة.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٣٦١) رقم (٥٤٠٩) وضعَّفه. وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٨٧٩).

وقد رُوي عن النبيّ عليه الصلاة والسلام أنه قال لعليّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه: «**يا عليّ لا تُتْبع النظرةَ النظرة، فإن الأولى لك، والثانيةَ عليك**»[١]. وفي قوله: «**لا تتبع النظرة النظرة**» تأويلان:

أحدها: لا تتبع نظرَ عينيك نظرَ قلبك.

والثاني: لا تتبع الأُولى التي وقعت سهواً بالنظرة الثانية التي تُوقِعها عمداً.

وقال عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: إياكم والنظرةَ بعد النظرة، فإنها تزرع في القلب الشهوة، وكفى بها لصاحبها فِتنة.

وقال عليّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه: العيونُ مصايد الشيطان.

وقال بعض الحكماء: مَن أرسل طرفه، استدعى حتفَه.

وقال بعض الشعراء:

وكنتَ متى أرسلتَ طرفَك رائداً ... لقلبك يوماً أتعبتكَ المناظرُ

رأيتَ الذي لا كلُّه أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنتَ صابرُ

وأما الشهوة فهي خادعة العقول، وغادرة الألباب، ومُحَسِّنة الفضائح، وليس عطَبٌ إلا وهي له سببٌ وعليه ألْبٌ، وقهرها عن

---

(١) أخرجه أبوداود رقم (٢١٤٩) كتاب النكاح. والترمذي رقم (٢٧٧٧) كتاب الأدب. وقال: حسن غريب، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٩٥٣).

هذه الأحوال، يكون بثلاثة أمور:

أحدها: غض الطَّرْف عن إثارتها، وكفه عن مساعدتها، فإنه الرائد المحرك والقائد المُهْلِك. رَوَى سعد بن سِنان، عن أنس بن مالك، عن النبيّ ﷺ، أنه قال: «**تقبّلوا إليّ بستّ أتقبّل إليكم بالجنة**، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: **إذا حدّث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا اؤتُمِنَ فلا يَخُن، غُضُّوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم، وكُفُوا أيديَكم**»[1].

والثاني: ترغيبها في الحلال عوضاً، وإقناعاً بالمباح بدلاً، فإن الله ما حرّم شيئاً إلا وأغنى عنه بمباح من جنسه، لما علمه من نوازع الشهوة، وتركيب الفطرة، ليكون ذلك عوناً على طاعته، وحاجزاً عن مخالفته. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما أمرَ اللهُ تعالى بشيء إلا وأعان عليه، ولا نهى عن شيء إلا وأغنى عنه.

والثالث: إشعار النفس تقوى الله تعالى في أوامره، واتقاؤه في زواجره، وإلزامها ما ألزم من طاعته، وتحذيرها ما حذَّر من معصيته، وإعلامُها أنه لا يخفى عليه ضمير، ولا يعزُب عنه قِطْمير، وأنه يجازي المحسن ويكافئ المسيء، وبذلك نَزَلت

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/٣٥٩)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق»، وصححه الألباني لشواهده، وهو في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٤٧٠) و«صحيح الجامع» رقم (٢٩٧٨).

كتبه، وبَلَّغت رسله. روى ابن مسعود أن آخر مانزل من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وآخر ما نزل من التوراة: «**إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت**». وآخر ما نزل من الإنجيل: «**شرُّ الناس مَن لَا يبالي أن يراه الناس مُسيئاً**». وآخر ما نزل من الزَّبور: «**مَن يزرع خيراً يحصد زرعه غِبطة**» فإذا أشعرها ما وصفت انقادت إلى الكف، وأذعنت بالاتقاء، فسلم دينه، وظهرت مُروءته، هذا شرط[1].

في فضل العفاف

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝٢٦ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ

(١) «أدب الدنيا والدين» ص(٣٠٩ ـ ٣١١).

مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٣١].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ . .﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ [النور: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

* **قال مجاهد**: هو الذي إذا همَّ بمعصية ذكر مقام الله عليه فانتهى.

* **وقال غيره**: إذا أراد أن يذنب أمسك عن الذنب مخافة الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢].

* **وفي الصحيحين** من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظِلّه يوم لا ظِلّ إلا ظِلّه: إمام عادل، وشابّ نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله ربّ العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما**

تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[١].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم، عن النبي ﷺ قال: «بينما ثلاثة يمشون إذ أخذتهم السماء فأووا إلى غار في الجبل، فانحطت عليهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً صالحة عملتموها فادعوا الله بها، فقال بعضهم: اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران وامرأة وصبيان، وكنت أرعى عليهم فإذا رحت عليهم حلبت فبدأت بوالدَيَّ أسقيهما قبل بنيَّ، وأنه نأى بي الشجر فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب فقمت عند رؤوسهما، أكره أن أوقظهما من نومهما وأن أبدأ بالصِّبية قبلهما والصبية يتضاغون[٢] عند قدمي، فلم أزل كذلك حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة نرى منها السماء، ففرَّج الله لهم فرجة. وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم فأحببْتُها كأشد ما يحبّ الرجال النساء، فطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار، فسعيت حتى جمعت مائة دينار فجئتها بها، فلما قعدت بين رجليها قالت: يا عبد الله اتق الله ولا تفضّ الخاتم إلا بحقّه، فقمت عنها وتركت المائة دينار، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٦٠) كتاب الأذان. ورقم (١٤٢٣) كتاب الزكاة، ورقم (٦٤٧٩) كتاب الرقاق. ومسلم رقم (٩١) كتاب الزكاة.

(٢) يتضاغون: يتضورون جوعاً.

من هذه الصخرة، ففرج الله لهم فرجة. فقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيراً بفرق[١] من أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي فأعطيته فأبى أن يأخذه، فزرعته ونمَّيته حتى اشتريت له بقراً ورعاءها[٢] فجاءني بعد حين فقال: يا هذا اتق الله ولا تظلمني وأعطني حقي، فقلت: اذهب إلى تلك البقر ورعائها فهو لك، فقال: اتق الله ولا تهزأ بي، فقلت: لا أستهزئ بك فخذ ذلك، فأخذها وذهب، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما بقي من الصخرة، ففرج الله عنهم وخرجوا يمشون»[٣].

* وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ من حديث عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجِبَ ربُّك من الشاب ليست له صَبْوَةٌ»[٤].

* وعن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صلَّت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئتِ»[٥].

---

(١) الفرق: مكيال من مكاييل أهل المدينة.
(٢) الرعاء: الكلأ.
(٣) أخرجه البخاري رقم (٢٢١٥) كتاب البيوع. ورقم (٢٣٣٣) كتاب المزارعة. ومسلم رقم (١٠٠) كتاب التوبة.
(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٥١) بسند فيه ابن لهيعة، وفيه ضعف.
(٥) أخرجه ابن حبّان، وصححه الألباني، وهو في «صحيح الجامع» رقم (٦٦٠).

وقال رسول الله ﷺ: «اكفلوا لي بستّ، أكفل لكم الجنة؛ إذا حدَّث أحدكم فلا يكذب، وإذا ائتمن فلا يخُن، وإذا وعد فلا يخلف، وغضّوا أبصاركم، وكفّوا أيديكم، واحفظوا فروجكم»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «مَن يضمن لي ما بين لَحْيَيه، وما بين رجليه، أضمن له الجنة»[٢].

ذكر ما ورد عن السلف في الافتخار بالعفاف

قال ابن القيم: ولم يزل الناس يفتخرون بالعفة قديماً وحديثاً[٣].

* **قال عبدالله بن نافع بن دريد**: قدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبدالمطلب فخرجت برجله قُرحَةُ الآكلة، فاجتمع رأي الأطباء على نشرها، وأنه إن لم يفعل قتلته، فأرسل إلى الوليد يسأله أن يبعث إليه بالأطباء، فأرسلني بهم إليه، فقالوا: نسقيك مُرْقداً[٤]، قال: ولم؟ فقالوا: لئلا تُحسَّ بما يُصنع بك، قال: بل شأنكم بها.

قال: فنشروا ساقه بالمنشار، حتىٰ فرغوا منها، ثم حسموها فلما نظر إليها في أيديهم تناولها، وقال: الحمد لله، أما والذي

---

(١) أخرجه البغوي والطبراني في «الكبير»، وحسَّنه الألباني وهو في «صحيح الجامع» رقم (١٢٢٥).

(٢) رواه البخاري رقم (٦٤٧٤) كتاب الرقاق.

(٣) «روضة المحبين» ص(٣٤٩).

(٤) مرقداً: دواء يشبه البنج.

حملني عليكِ إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام قط .

* **وفي رواية أخرى أنه قال**: إن مما يطيِّب نفسي عنك أني لم أنقلك إلىٰ معصية الله قط .

لا خير فيمن لا يراقب ربّه عند الهوى ويخافه إيماناً
حجبَ التُّقى سبل الهوى فأخو التقى يخشى إذا وافى المعاد هواناً

* **وقال إبراهيم بن أبي بكر بن عياش**: شهدت أبي عند الموت فبكيت، فقال: يا بني! ما يبكيك، فما أتىٰ أبوك فاحشة قط!

* **وقال عمر بن حفص بن غياث**: لمَّا حضرت أبي الوفاة أغمي عليه، فبكيت عند رأسه، فأفاق فقال: ما يبكيك؟ قلت: أبكي لفراقك ولما دخلت فيه من هذا الأمر، يعني القضاء، فقال: لا تبكِ فإني ما حللتُ سراويلي علىٰ حرام قطّ .

* **وقال سفيان المصّيصي**: شهدت الهيثم بن حميد وهو يموت، قد سُجِّي[1] نحو القبلة، قال: فقامت جاريتهُ تغمز رجله، فقال: اغمزيها فإنه ـ يعلم الله ـ أنهما ما مشتا إلىٰ حرام قطّ .

* **وقال مالك بن دينار**: جنات النعيم بين جنات الفردوس وبين جنات عدن، فيها جوارٍ خُلقن من ورد الجنة. قيل: ومن يسكنها؟ قال: الذين إذا همُّوا بالمعاصي ذكروا عظمة الله وراقبوه، والذين انثنت أصلابهم من خشية الله .

* **وقال ميمون**: الذكر ذكران: فذكر الله عز وجل باللسان

---

(١) سُجِّي: غُطِّي ووُجِّه.

حسن. وأفضل منه أن يذكر الله عندما يُشرف عليه من معاصيه.

* وقال يحيى بن أبي كثير: لا يُحمد أو يحسن ورعُ امرئ حتىٰ يُشفي علىٰ طمع ويقدر عليه، فيتركه حين يتركه لله عز وجل.

* وقال عبيد بن عمير: مِنْ صدْقِ الإيمان وبرِّه أن يخلو الرجل بالمرأة الحسناء فيدعها، لا يدعُها إلا لله عز وجل.

ونفسك أكرم عن أمورٍ كثيرة ... فمالك نفسٌ بعدها تستعيرها
ولا تقرب المرعى الحرام فإنما ... حلاوته تفنى ويبقىٰ مريرُها

* وقال مالك بن دينار: بينا أنا أطوف إذ أنا بجارية متعبِّدة متعلِّقةٍ بأستار الكعبة وهي تقول: يا رب كم من شهوةٍ ذهبت لذَّتها، وبقيت تَبِعتها، أيا ربّ! أما لك أدبٌ إلا النار؟ فما زال مقامها حتى طلع الفجر، فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي خارجاً أقول: ثكلت مالكاً أمُّه، جُوَيرِيَةٌ منذ الليلة قد بطّلَته[1].

وطائفةٍ بالبيت والليلُ مظلمٌ ... تقول ومنها دمعُها يتسجَّم[2]
أيا ربَ كم من شهوةٍ قد رُزِئْتُها ... ولذّة عيشٍ حبلُها متصرِّم[3]
فما زال ذاك القول منها تضرُّعاً ... إلى أن بدا فجرُ الصباح المقدَّمُ
فشبكْتُ منِّي الكفّ أهْتِفُ خارجاً ... عَلَى الرأس أُبدي بعضَ ما كنت أكتم
وقلت لنفسي إذ تطاول ما بها ... وأعيا عليها وِرْدُها المتغنَّمُ
ألا ثكلتك اليوم أُمُّك مالكاً ... جُوَيرِيةٌ ألهاك منها التكلُّم

---

(١) بطّلته: أضاعت وقته وعطَّلته.
(٢) يتسجَّمُ: يسيل.
(٣) متصرم: منقطع.

فما زلتَ بَطّالاً بها طول ليلةٍ ... تنال بها حظًّا جسيماً وَتَغْنَمُ

* **وقال أبويوسف في مرضه الذي مات فيه**: اللهم إنك تعلم أني لم أطأ فرجاً حراماً قط وأنا أعلم، ولم آكل درهماً حراماً قط وأنا أعلم.

* **وقال إسماعيل بن إسحاق القاضي**: دخلت على المعتضد وعلى رأسه غلمان صباح الوجوه أحداث، فنظرت إليهم فرآني المعتضد وأنا أتأملهم، فلما أردت القيام أشار إليَّ، فمكثت ساعة، فلما خلا قال لي: أيها القاضي والله ما حللت سراويلي على حرام قط.

ما إن دعاني الهوى لفاحشةٍ ... إلا نهاني حياءٌ منك والكرمُ
فلا إلى فاحشٍ مددتُ يدي ... ولا مشت بي لريبةٍ قدمُ

بين الحياء والعفة

«الحياء هو انقباض النفس عن القبائح، وهو صفة من صفات النفس الممدوحة؛ لأن اشمئزاز النفس عن القبائح يستلزم تركها والانصراف عنها. فالحياء بهذا المعنى من أفضل صفات النفس وأجلّها قدراً.

وأما العفة: فهي التوسطُ بين طرفي الإفراطِ والتفريط في الشهوة والغضب على الوجه الذي بيَّناه فيها، فهي مساوية للعدل؛ لأن مَن توسَّط في شهوته وغضبه كان مؤدياً لِمَا يجب عليه من

الحقوق لنفسه ولغيره، سواء كانت متعلقة بحقوق الله أو حقوق عباده، وذلك معنى العدل. وبديهي أن العفة تستلزم الكف عن القبائح.

أما التلذذ المباح فقد ذكرنا لك حكمه في مبحث الاقتصاد ومبحث شهوة الفرج وغيرهما، وقلنا لك: إن العفة لا تستلزم ترك التمتع بنعم الله وطيبات رزقه؛ لأن الله خلقها للناس ليستمتعوا بها ويذكروا نعمة الله عليهم، فإذا وجد ما يقتضي هجر اللذات المباحة، كما إذا راضَ نفسه ليصل إلى إدراك حقيقة من الحقائق، أو يكون قدوة للبؤساء الذين حرموا من لذَّات الدنيا، أو يكون مثالاً لقومه في الاقتصاد أو نحو ذلك، فإنه إنما يريد بذلك لذة أرقى وتمتعاً أكبر؛ لأن استمتاع النفس بهذه الأمور المعنوية الباقية أكبر وأعلى من استمتاعها باللذات المحسَّة المنقضية كما بيناه لك في أول هذا الباب.

أما هجرُ اللذات وتركُ التمتع بالطيبات من الرزق لا لغرض سوى أنه يريد به الرهبنة فإنه لا يجوز في نظر الإسلام؛ لأن الله أمر الناس أن يأكلوا من طيبات رزقه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨]، فقد أمر الله تعالى بأكل الحلال الطيب. نعم إذا كان الاستمتاع يفضي إلى الترف والإسراف كما بيَّنا في موضعه فإنه يكون مذموماً.

أنـواع الحيـاء

ينقسم الحياء إلى قسمين: حياء من الله، وحياء من الناس. وهو بقسميه رأسُ الفضائل وأساس مكارم الأخلاق؛ لأنه يترتب عليه ما يترتب على العدل والعفة، ولذا قال رسول الله ﷺ: «**الحياء خير كله**» رواه مسلم[١]. وقال ﷺ: «**الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة. والبذاء**[٢] **من الجفاء والجفاء في النار**»[٣] رواه أحمد وغيره. وقد سُئِل رسول الله ﷺ: هل الحياء من الدين؟ فقال: «**بل هو الدين كله**»[٤]. من حديث رواه الطبراني وغيره. وقال ﷺ: «**الحياء شعبة من الإيمان**»[٥] من حديث رواه البخاري ومسلم. وقال ﷺ: «**الحياء والإيمان قَرَناً جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر**»[٦] رواه الحاكم وغيره.

---

(١) «صحيح مسلم» حديث رقم (٦١)، كتاب الإيمان.

(٢) البذاء: الفحش.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٥٠١)، والترمذي رقم (٢٠٠٩) كتاب البر والصلة. وابن ماجه رقم (٤١٨٤) كتاب الزهد. وقال الألباني: حسن صحيح. انظر: «صحيح الترغيب» رقم (٢٦٢٨).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٩/ ٣٠) رقم (٦٣)، ورواه أبوالشيخ في «الثواب» كما ذكر المنذري في «الترغيب». وقال الألباني: صحيح لغيره. انظر: «صحيح الترغيب» رقم (٢٦٣٠).

(٥) أخرجه البخاري رقم (٩) كتاب الإيمان. ومسلم رقم (٥٧، ٥٨) كتاب الإيمان.

(٦) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٢٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين، =

هذا بعض ما قاله رسول الله ﷺ في الحياء، وهو كما ترى يتضمن وعدَ من اتصف بالحياء بالجنة، ووعيدَ من اتصف بضده من البَذَاءِ والقِحَةِ[1] بالنار، فقد أخبر ﷺ أن الحياء خير كله وأنه قرين الإيمان فإذا رفع الحياء رفع الإيمان، ثم قال: إن الإيمان ـ أي أهل الإيمان ـ في الجنة. وأن البذاء من الجفاء وأهل الجفاء في النار. ولا ريب في أن ذلك من أجلِّ الحِكَمِ وأفضل الموعظة، فما من أحد يستمسك به ولا يحيد عنه إلا عاش في دنياه عيشة راضية مرضية، وظفر في آخرته بالسعادة الدائمة والملك المقيم.

آثار الحياء

قد علمت أن الحياء ينقسم إلى قسمين: حياء من الله، وحياء من الناس.

فأما الحياء من الله فإنه يترتب عليه كل الفضائل التي يسعد بها الناس في دنياهم وآخرتهم.

فإن الذي يستحيي من الله لا يفعل منكراً، ولا يترك واجباً مادام يؤمن بأن الله مطَّلع عليه لا تخفى عليه خافية من أمره، وأنه لابد أن يجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وأنه سبحانه هو الذي خلقه فسوّاه وأمدَّه بِنِعَمِه وفضله على كثير ممن خلق،

= وصححه الألباني. انظر: «صحيح الترغيب» رقم (٢٦٣٦).

(١) القِحَةِ: قلّةُ الحياء.

وأنه مدين له سبحانه في وجوده وبقائه وفنائه وبعثه، وأنه محتاج إليه في جميع حركاته وسكناته، وأنه إذا تأمَّل في نفسه، وأدركَ ما انطوت عليه من دقيق الصنع وبديع التركيب، وعلم أنه لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً، فلابدَّ من أن يستحيي عن عصيان ذلك الخالق، ولابد أن يفعل ما أمره الله به وينتهي عمَّا نهاه عنه، وذلك هو الخير كله كما قال رسول الله ﷺ. وهذا ظاهر لأن الذي يطيع الله فيما أمره لا يظلم أحداً من عباده، ولا ينقص أحداً منهم حقه، فيوقر الكبير، ويرحم الصغير، وينزل كل واحد منزلته، ولا يترك ما يجب عليه نحو أحد. ولا يهمل حقًّا من حقوق ربه، ومن يفعل ذلك فهو ذو فضل عظيم وخير كثير على نفسه وعلى غيره، يعيش في هذه الحياة عيشة راضية مرضية، ويحيا حياة هنيئة طيبة في الدنيا والآخرة، وذلك هو الفوز العظيم.

وأما الحياء من الناس فهو قسمان أيضاً:

الأول: أن يستحيي المرء من الناس وهو جازم بأنه لا يأتي هذا المنكر، ولا يفعل هذه الرذيلة خوفاً من الله تعالى وحياء منه أيضاً ولو لم يطلع عليه أحد من خلقه، وهذا هو الحازم الذي عرف كيف يستفيد من صفة الحياء ويأخذ أجرها كاملاً، لأن الحياء إنما يمدح من جميع جهاته إذا ترتب عليه الكف عن القبائح التي لا يرضاها الدين في جميع الأحوال.

الثاني: أن يترك القبيح حياء من الناس بحيث لو لم يطلع

عليه أحد لفعله، وهذا وإن كان لم يأخذ أجره كاملاً[١]، ولكنه يرجى منه الخير وينجح فيه العلاج، لأنه مادام الحياء موجوداً في نفسه، وما دام لا يفعل القبائح بين الناس، فإنه يسهل تذكيره بعظمة ربه وجلاله إن كان مؤمناً وتعليمه أن الله أولى وأحق بأن يُستحيَ منه، لأنه هو القادر الذي بيده ملكوت كل شيء وهو بكل شيء عليم، فليس من الحزم أن يستحيي الإنسان من الناس ولا يستحيي من ربه. وليس من العقل أن يضيع ثواب ترك القبيح بانصرافه عن ملاحظة خالقه ومراقبة ربه.

أما الذي يجاهر بالعصيان ولا يستحيي من الله ولا من الناس، فهو من شر ما مُنيت به الفضيلةُ؛ لأن المعاصي داء سريع الانتقال لا تلبث عَدْواه أن تسري إلى النفوس الضعيفة فيعمّ شرها، ويتفاقم خطبها، فضلاً عما في المجاهرة من انتهاك حرمة الفضيلة والقضاء عليها، فشره على نفسه وعلى الناس عظيم، وخطره على الفضائل كبير، فيجب على جماعة المسلمين أن لا يتركوا أولئك الذين يجاهرون بارتكاب الموبقات يعيشون بينهم، بل يجب على كل واحد أن يبذل مجهوداً في ردّهم عن غيِّهم بكل ما يستطيع من نصيحة وغيرها.

وخير علاج للقضاء على هؤلاء مقاطعتهم وعدم مخالطتهم، واحتقارهم في مجالسهم، والانصراف عن حديثهم، حتى يرجعوا

---

(١) وأيُّ أجرٍ يكون له مع فساد نيته؟!

عن غيهم، ويكفوا عن المجاهرة بجرائمهم.

ومن الأسف أن المجاهرة بالعصيان قد فشت في زماننا بدون حياء من الله ولا من الناس، وأصبح التزاحم على الشهوات الفاسدة واللذات المحرمة شائعاً، والتسابق في ميدان القبائح شاملاً، فلا شاب ينزجر، ولا شيخ يرعوي، ولا رجل تدركه الغيرة، ولا امرأة يغلب عليها الحياء، وذلك آية فناء الأُمم وهزيمتها في كل شأن من شؤونها، فإنما الأمم تحيا حياة طيِّبة بالتمسك بالفضائل، وتعيش عيشة سعيدة باجتناب الرذائل، فإذا انتهكت المحارم وغلبت الشهوات، وضاع الحياء، فماذا يُرتجىٰ بعد ذلك من عيش وراءه سخط الله وعقابه ومقته وعذابه. ألا إن ذلك لهو الهلاك والخسران.

دمعـــة على العفـــاف

فها أنت ترى النساء خرجن عن كل معنى يطلبه الحياء، فيخرجن في كثير من المدن عاريات الصدور، كاشفات الأذرع، يعرضن زينتهن ـ التي لا يحلّ الاطلاعُ عليها إلا لمحارمهن الذين ذكرهم الله ـ على كل غادٍ ورائحٍ، ولا يبالين أن يختلطن بالرجال اختلاطاً معيباً مذرياً، ويكلمن الشبان على مرأى ومسمع من الناس، بدون أن يخطر على بال واحدة منهن شيء من الحياء الذي كان شعار آبائهن وأمهاتهن من قبل، ولا يعرفن للعفة التي عليها صيانة الشرف وحفظ الذريَّة معنى، ولا يدركن أن هذا العمل يقضي على بناتهن

وأخواتهن وأقربائهن شر قضاء؛ لأن الشبان الذين يجدون حاجتهم من أولئك العاهرات، ينصرفون عن الزواج ويكتفون بالسِفاح، فتبور الفتيات، ويصبحن عاطلات مُعَرَّضات للخنا والفساد.

فأي شر بعد هذا الذي يفعلنه هؤلاء الفاجرات؟ وأي ضرر بعد هذا يُلحقنه بنظام العمران؟ وأي فساد بعد ذلك الفساد الذي يقضي على الأدب والفضيلة، ويعرض الفتيان والفتيات لأسوأ المِحَن وشر البلواء؟ كما بيَّنا ذلك في مبحث الزنا واللواط.

ألا إن ذلك لمما تسيل من أجله العَبَراتُ، وتذوب من أجله الأكباد.

المهزومون نفسيًّا

ومما يضاعف البلاء ويزيد في المصيبة، أننا قد مُنينا بقوم يظنون أن الفضيلة كلّ الفضيلة في الاقتداء بغيرهم من الأُمم التي أتيح لها من القوة المادية ما يكون لها به السلطان على الضِعاف، فلا ينفكون عن تحريض النساء على الخروج عن الآداب باسم الحرية والمدنية، ومنهم مَن يبالغ في النكاية بالفضيلة، فيجعل التهتك في أرذل حالاته فضيلةً من الفضائل وعلماً من العلوم التي يجب أن تطلب، ومن ذلك ـ الرقص ـ فإنه أصبح عند هؤلاء فنًّا من الفنون التي يجب على المرأة أن تتعلمه، وما عليها من بأس أن تخاصر مَن تشاء من الشبان، وتلصق جسمها بجسمه، وما عليها من حرج إذا وضعت سوأتها على سوأته على مرأى ومسمع من

بعلها إن كان لها بعل، وما عليها من عار إذا اختلت بذلك الشاب الذي رقص معها في أي وقت شاءت.

فهل بعد ذلك من فضيحة تقضي على الفضيلة شر قضاء؟

أَلا نَبِّئُونا أيُّها الظُرفاءُ المتعلمون! هل هذه الحالة هي التي تُقَيِّد المرأة في حياتها المنزلية المستقبلة، فتعلم منها كيف تسهر على تربية أبنائها وبناتها تربية تنفعهم وتنفع قومهم.

هل هذه الحالة هي التي تعلِّم المرأة كيف تصون عرضها، وتحفظ نفسها، وتكون مثالاً حسناً لبناتها وبنيها.

هل هذه الحالة هي التي تقضي على المرأة باحترام زوجها وعدم التطلُّع إلى غيره أيًّا كان حاله، فتدوم بينهما الأُلفة، وتستمر علاقة الزوجية مصونة عن العبث، أو هي على العكس من كل هذا تمرن المرأة على اللهو والخلاعة والانصراف عن تدبير منزلها، وتلفت نظرها إلى غير زوجها إن خالت فيه ميزة من جمال أو مال أو نحوهما، وتكون مثالاً سيئاً لأسرتها وعاراً على ذويها.

لعلكم تقولون: إن التربية الأخلاقية شيء والفنون الجميلة شيء آخر، فمَن كانت مصونة لا يؤثِّر فيها ذلك شيئاً.

جهـــل أم عنـــاد؟

وهذا هو الذي نعيبه عليكم ونؤاخذكم به، لأنكم بذلك تجهلون بيئتكم التي تعيشون فيها، وتحكمون على قومكم بغير أخلاقهم وطباعهم، جهلاً منكم بصفات النفوس وطبائع الناس،

بل هو جهل أو تجاهل بالمشاهد المحسّ ـ المحسوس ـ الذي لا ينبغي أن يجهله أحد منكم.

فكم رأينا أن التهتُّك جرَّ إلى فساد كثير من الأُسر، وأضاع حياء كثير من القبائل، وقاد كثيراً من الفتيات والفتيان إلى المجاهرة بالفسق والخروج على أهلهم وذويهم.

وكم رأينا مصارع الفضيلة على مسارح الرقص.

وكم شاهدنا حرمة الآداب تُنتهك في سبيل ذلك التهتُّك الذي يسمونه مدنيَّة وحريَّة.

وكم جرَّ ذلك من أمراضٍ أخلاقيَّة وبدنيَّة على الفتيان والفتيات.

فهل تَخَفَّى ذلك على هؤلاء الذين يقولون: إن التهتُّك والخلاعة والمجون لا علاقة لها بالخنا والفساد؟

ألا إن ذلك لجهل عظيم، فإن أسباب الشر تنتج الشر، وأسباب الخير تنتج الخير، فمَن يتمسَّك بأسباب الفساد يلقَ الفساد بلا نزاع.

مدنيــة أم تهتــك؟

وأعجب من هذا وأشد مصيبة أنهم يتوسلون في إغراء النساء على الخروج عن الآداب بأن المرأة شريكة الرجل في الحياة، فلا يصح أن يكون هو طليقاً حرًّا وهي رهينة منزلها وأسيرة مخدعها، ويستدلون على انحطاط الأمة وعدم تقدُّمها في المدنيَّة بعدم رُقِي المرأة وجهلها. وفي هذا غاية العجب، فإن هؤلاء كأنهم يعتقدون أن الفساد وانتهاك حرمات الفضيلة والخروج على الآداب

والأخلاق سبب في رُقِي الأُمم وسعادتها.

فيا أيُّها الناس! بربكم قولوا لنا ما للرُقِي وما لرقص النساء على المسارح، وتبرجهن في الطُرُق، ومغازلة الرجال والشبَّان؟

ما للرُقِي وما لتعرُّض عفاف المرأة عرضها للفساد.

ما لرُقِي الأُمم وخروج المرأة عن كل قيد من قيود الحياء.

الرجل كالمرأة في ميزان العفة

ومَن قال: إن الرجل طليق لا حرج عليه فيما يأتيه من الأعمال؟ لا ريب في أن الرجل كالمرأة تماماً في جانب الفضيلة والرذيلة، فما هو محرَّم عليه محرَّم عليها، وما هو واجب عليه واجب عليها، فكما لا يحلُّ لها أن تضيِّع عفافها كذلك لا يحلُّ له، وكما يَحْرُم عليها اجتناب الوسائل التي تُفْضي إلى ارتكاب الجرائم والموبقات، كذلك يَحْرُم عليه اجتنابها، فإذا قلنا للمرأة: لا تتبرجي، ولا تنتهكي حرمات الفضيلة، ولا تخالطي مَن يطمع في عفافك، وتجنَّبي وسائل الفساد، كذلك نقول للرجل: غضّ بصرك عما لا يحل لك، واجتنب كل ما يؤذي الناس في أعراضهم، واحذر أن تطمع في سلب عفاف امرأة لا تملك عصمتها، ولا تتوسل بأي وسيلة تُفضي إلى ذلك، وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، فلا فرق بين الرجل والمرأة في التكاليف الشرعية، إنما لكل منهما وظيفة يؤديها في هذه الحياة كاملة، ولكل منهما طبيعة يترتب عليها آثار غير طبيعة الآخر،

وعلى كل فرد من الأفراد سواء كان رجلاً أو امرأة أن يتمسَّك بكل ما يترتب عليه صالح، ويتجنب كل ما يترتب عليه سوء، فالشريعة إنما تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، وتنهىٰ عن التمسُّك بالأسباب التي توصل إلى ذلك.

إن هم إلا كالأنعام

فإذا وُجِدَ بين الناس مَن يقول: إن الفحشاء والرذائل لذّاتٌ لا يصح تركها، فهؤلاء قد خرجوا عن موازين الإنسانية، وأصبحوا كالأنعام لا همَّ لهم إلا اللذَّات، فلا يغارون على أعراضهم، ولا يخافون على بناتهم ونسائهم كما بيَّنا لك في مبحث الزنا. وهؤلاء لا فائدة من إرشادهم، ولا جزاء لهم إلا أن يبيدهم الله من المجتمع ويحفظه من شرّهم ـ وبعد ـ فإن الإسلام قد أمر النساء أن يتعلمن ما لهن وما عليهن من الحقوق والواجبات، فمهما أمكن ذلك بالأدب والحشمة والوقار وعدم التعرُّض للفساد كان ضروريًّا.

أسباب النصر

ولقد كان المسلمون في عهد النبي ﷺ ومَن بعده من الخلفاء الراشدين من أعز الأُمم قدراً وأرفعهم مكانة، وكانت نساء المسلمين يومئذٍ مهذَّباتٍ مثقَّفاتٍ متمسكاتٍ بكتاب الله تعالى، فلا يتبرجن، ولا يتهتكن، ولا يرقصن على المسارح، ولا يُطمِعن أحداً في عفافهن. فهل كان ذلك جموداً قضى بتأخُّر المسلمين وانحطاطهم، أو كان المسلمون يومئذٍ من أعزّ الأُمم قدراً وأعلاهن

مكانة؟ وقد قهروا أشد الأُمم يومئذٍ بطشاً وأكبرهم قوة، فهزموا الفُرس والرومان، وقضوا عليهما قضاء مبرماً بسبب تمسكهم بالفضائل الدينية، وتجنبهم للرذائل الأخلاقية، وصيانة أعراضهم ونسائهم من الفساد، فمَن كان مسلماً يؤمن بالله ورسوله فليقتد بهؤلاء الكِرام البررة، وإلا فليتعرَّض للهلاك والدمار في الدنيا والآخرة، وما الله بغافل عمَّا يعمل الظالمون.

هذا بعض ما يجاهر به النساء من العصيان والخروج عن الأدب والحياء.

أما الرجال فإنهم لا يبالون بمهاجمة النساء، وتحريضهن على الفساد، وإغرائهن على الاستمرار على حالهن بدون خوف على نسائهم وبناتهم كما تقدَّم في مبحث الزنا، وهم مع ذلك لا يبالون من معاقرة الخمور جهاراً، ولا يستنكفون عن كسب المال من أيّ طريق كان، ولو كان فيه هلاكهم وفضيحتهم، ولا يستحيون من الغش والخديعة والميسر والزور، ولا يبالون بارتكاب الجرائم علانية بدون حياء ولا وجل، وهذا غاية الفساد ونهاية الضلال، فلا هم يتأثرون بالمواعظ، ولا هم يزدجرون بالحوادث، ولا هم يخافون من عقوبات دنيوية وأمراض جثمانية، ولا هم يخشون عذاب الله وعقابه، يوم لا ينفع مال ولا بنون، فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل»[١].

(١) كتاب «الأخلاق الدينيّة».

الأسباب الباعثة على العفة

ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أسباباً كثيرة تدعو إلى العفاف وتقوي باعثة في النفس منها:

١ ـ **الخوف من الله تعالى وإجلاله** ومراعاة جانبه والحذر من الوقوع في معصيته، وهذا أقوى الأسباب وأجلّها.

٢ ـ **الرغبة في الجزاء الأخروي والتمتع بالحور الحسان يوم القيامة**، فإن من استمتع في الدنيا بما حرَّمه الله عليه عوقب بالحرمان من الاستمتاع به في الآخرة. قال ﷺ: «مَن لبس **الحرير في الدنيا، لم يلبسْه في الآخرة**»[١]. و«مَن شرب **الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة**»[٢].

٣ ـ **الخوف من العذاب الأخروي**، وهو دون الأول والثاني، فإن ترك المعصية رغبةً ومحبةً أفضل من تركها خوفَ العقوبة.

٤ ـ **خوف العار والشنار.**

٥ ـ **الرغبة في جميل الذكر وحسن الأحدوثة.**

٦ ـ **كرم الطبع وشرف النفس وعلو الهمة.**

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٥٧٥) كتاب الأشربة. ومسلم رقم (٧٦ ـ ٧٨) كتاب الأشربة.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٨٣٢ ـ ٥٨٣٤) كتاب اللباس، ومسلم رقم (١١، ٢١، ٢٢) كتاب اللباس والزينة.

٧ ـ **الإبقاء على الجاه والمروءة والمنزلة عند المحبوب وعند** الناس.

٨ ـ **الحياء من المحبوب** والاحتشام له وعدم إرادة الضرر به.

٩ ـ **عفة المحبوب ونزاهته.**

١٠ ـ **لذة الظفر بالعفة**، فإن للعفة لذَّةً أعظم من لذة قضاء الوطر.

١١ ـ **العلم بما تعقبه اللذة المحرمة من المضار والمفاسد.**

١٢ ـ **الخوف من شماتة الأعداء**، فقد قيل لعتبة بعد موت عاشقها: ما كان يضرك لو أمتعتيه بوجهك؟ قالت: منعني من ذلك خوف العار، وشماتة الجار، ومخافة الجبار.

١٣ ـ **الخوف من انقلاب المودة إلى عداوة يوم القيامة**؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

١٤ ـ **الحذر من إيذاء المسلمين**(١).

وكلما كان باعث الدين أقوى في حصول العفة كان الثواب أعظم.. وكلما خفَّ باعث الدين قلَّ الثواب، حتى إنه ليحرم أجر العفاف كله إذا لم يكن هناك أي باعث ديني، كالذي يعفّ لمجرد خوف الانكشاف والافتضاح ولولا ذلك لتمنى أن يَلِغَ في فنون المجون، بل يمكن أن يعاقب على هذه النية الخبيثة.

وهذه الأسباب التي ذكرها الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هي

---

(١) انظر: «روضة المحبين» ص(٣٤٨، ٣٤٩).

أسباب نفسية، ترتبط بالنفس والفكر الداخلي للإنسان، وهناك أسباب أخرى عملية ترتبط بعمل الإنسان وسلوكه، وهي أيضاً تدعو إلى العفاف وتساعد على التخلُق به ومن ذلك:

١٥ ـ **الالتزام بخُلُق الحياء.**

١٦ ـ **إقامة الصلاة ذات الخشوع والخضوع.** قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

١٧ ـ **الزواج؛ لقوله ﷺ: «يا معشر الشباب، مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصن للفرج، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجَاء»**[1].

١٨ ـ **كثرة الصيام** للحديث السابق.

١٩ ـ **البُعد عن الفواحش وأماكن الإثارة.**

٢٠ ـ **ترك مشاهدة ما يثير الغرائز عبر المجلات الخليعة والقنوات الفضائية وغيرها.**

٢١ ـ **غض البصر عمَّا حرَّم الله.** قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

٢٢ ـ **ترك الخلوة والاختلاط.**

٢٣ ـ **ترك سماع الغناء؛ لأنه بريد الزنا، ورقية الشيطان.**

٢٤ ـ **ترك الأحاديث الماجنة والنكات الفاحشة.**

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١٩٠٥) كتاب الصوم، ورقم (٥٠٦٥). كتاب النكاح. ومسلم رقم (١ ـ ٥) كتاب النكاح.

٢٥ - ترك قراءة كتب الجنس والأشعار الفاضحة والمجلات الخليعة.

٢٦ - ملء الفراغ بما هو مفيد مِن علم نافع أو رحلات مفيدة، أو تجارة حلال.

٢٧ - صحبة الأخيار وأهل العفاف.

٢٨ - التزام المرأة بالحجاب الكامل عند خروجها.

٢٩ - غيرة الرجال على النساء، وعدم تمكينهن من التبرج والسفور والاختلاط بالرجال في الأسواق والأماكن العامة.

٣٠ - إتيان المتزوج أهله عند رؤية ما يستحسن من النساء، فإن ذلك يردّ ما في نفسه.

٣١ - ممارسة الرياضة النافعة.

٣٢ - معرفة أضرار الزنا في الدين والدنيا، إضافة إلى الأمراض التي يسببها لأهل الفواحش.

٣٣ - تذكّر ما أعدّ الله لأهل العفاف من نعيم في الجنة.

٣٤ - تذكر مرارة الموت وانقطاع الأعمال.

٣٥ - علو الهمة ومعرفة الغاية من الوجود.

٣٦ - قطع الخواطر الرديئة والتلهي عن ذلك بطاعة الله.

٣٧ - إدمان ذكر الله وقراءة القرآن والدعاء والثناء على الله تعالى واللجوء إليه سبحانه في كل الأوقات.

٣٨ - تذكر ما لا يُستحسن من المرأة، من بول وغائط وعرق وحيض وغير ذلك مما تنفر منه النفس، فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا أعجبت أحدكم امرأة فليذكر مَنَاتنها.

٣٩ ـ تسهيل أمور الزواج ومواجهة جميع الأسباب التي تؤدي إلى العنوسة وعزوف الشباب عن الزواج.

٤٠ ـ قراءة قصص أهل العفاف من الرجال والنساء.

٤١ ـ قيام أهل الحسبة بواجبهم تجاه العابثين والعابثات في الأسواق والأماكن العامة.

٤٢ ـ التفكر في العرض على الله عز وجل وهو يحمل ذنوبه فوق ظهره.

٤٣ ـ التفكر في شهادة المكان الذي يعصي الله فيه عليه.

٤٤ ـ التفكر في شهادة جوارحه عليه.

٤٥ ـ استعمال بعض الأدوية والأغذية التي تقلل الباه[١].

٤٦ ـ الانتقال من مكان المعصية إلى مكان الطاعة.

٤٧ ـ عيادة المرضى وتشييع الجنائز وزيارة القبور فإن ذلك يطفئ نيران الهوى.

٤٨ ـ الحذر من نزول العذاب في الدنيا والابتلاء بالمصائب الشديدة.

٤٩ ـ التفكر فيما يفوِّته الزنا من فضائل.

٥٠ ـ إعمال الفكر والإصغاء إلى واعظ القلب[٢].

---

(١) الباه: الشـهوة.

(٢) وبعض هذه الأسباب أيضاً نقسية، إذ الجمع بين الأسباب النفسية والعملية السلوكية أنجع في الوصول إلى فضيلة العفاف.

أشراف العرب في الجاهلية يفضلون العفَّة

قال ابن الجوزي: ولم تزل أشراف العرب في الجاهلية يجتنبون الزنا ويذمونه، وينهون عنه.

وروى هشام بن عروة عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها قالت: سمعت زيد بن عمرو بن نفيل في الجاهلية، وهو مسند ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش، إياكم والزنا، فإنه يورث الفقر.

وفي وصية **دُرَيْد بن الصمَّة**: إياكم وفضيحة النساء، فإنها عقوبة غد، وعار الأبد، يكاد صاحبها يعاقب في حَرَمه بمثلها، ولا يزال عارها لازماً له ما عاش.

عفاف الحارث بن عبدالمطلب

روى أهل السير أن عبدالمطلب بن هاشم وفد على بعض ملوك حمير، فألطف منزلته وأكرمه، وكان عبدالمطلب لا يسافر سفراً إلا ومعه ابنه الحارث، وكان أكبر ولده، وكان شابًّا جميلاً..

فقال له الملك: يا أبا الحارث! أحبّ أن ينادمني ابنك.. فأذن له أبوه في ذلك.. وكانت زوجة هذا الملك من أجمل النساء، فعشقت الحارث بن عبدالمطلب، ودعته إلى الفاحشة.. فأعلمها أنه محصن عن الزنا ولا يخون نديمه.. فألحَّت عليه

وشكت إليه غلبة الشهوة والفتنة به.. فكتب إليها:

لا تطمعي فيما رأيت فإنني | عفّ منادمتي عفيف المئزر
أسعى لأدرك مجد قوم سادة | عمرو قطين البيت عند المشعر
فاقْنَيْ حياءَك واعلمي أني امرؤٌ | آبي لنفس أن يعيَّر معشري
أنَّـى أُزَنُّ بجـارتـي أو كنَّـتي | أو أن يقال صبا بعرسِ الحميري

ثم إنه أخبر أباه.. فصوّب رأيه وقال له: يا بني! إن لنساء الملوك طفاحاً. فلما رأته قد عزفت نفسه عنها قالت: والله لا أدعه تتمتع به امرأة أبداً.. فلما يئست منه سقته السمّ.. ثم ارتحل مع أبيه.. فلما قدم مكة مات.. فجزع عليه عبدالمطلب جزعاً شديداً وقال في رثائه:

سقى الإله صدى واريتهُ بيدي | ببطن مكة تعفوه الأعاصير
يا حارث الخير قد أورثتني شجناً | فمـا لقلبـي عـن ذكـراك تغييـر
فلست أنساك ما هبت شآمية | وما بدا علم في الآل معمور[1]

لا أرضى أن أخون أباك

لمَّا قتلت بنو أسد بن خزيمة حجر بن الحارث أبا امرئ القيس، دار في أحياء العرب فلم ير منهم ما يحب، فمضى حتى قدم على هرقل ملك الروم، فأقام عنده شهراً فأكرمه ونادمه، وأعجبه كماله وعقله، ثم بعث معه ستمائة من أبناء الملوك ومن

---

(١) انظر: «المنتقى من أخبار النساء» للشيخ زهير الكبي، ص(١٣١، ١٣٢).

تبعهم. . فنظرت إليه ابنة الملك فعشقته. . وأرسلت إليه أن يلقاها قبل خروجه. . فجعل يعتذر لها ويعلّلها. . ولا يرضى أن يخون أباها فيها مع ما فعله معه. . وخرج منصرفاً إلى بلده. . فقالت بنت هرقل لأبيها: ما صنعت بنفسك؟ وجّهت أبناء ملوك الروم مع ابن ملك العرب؟ لو قد استمكن مما أراد غزاك ونزع ملكك. فوجّه إليه هرقل بحُلّة منسوجة بالذهب مسمومة، فلما لبسها تنفَّط[١] جلده وتساقط لحمه، فنظر إلى جبل فسأل عنه فقيل له: اسمه عسيب فقال:

أجارتنا إن المزار قريب وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان هٰهنا وكلٌّ غريب للغريب نسيب

ثم مات في هذا الموضع.

* * *

ومما فضّل به بسطام بن قيس على عامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث بن شهاب وكلهم من شعراء الجاهلية أن بسطاماً كان فارساً عفيفاً جواداً، وكان عتبة فارساً عفيفاً بخيلاً، وكان عامر فارساً جواداً عاهراً، فاجتمعت في بسطام ثلاث خصال شريفة فبذلك فضل بسطام عنهما[٢].

---

(١) تنفّط: انتفخ.
(٢) «المنتقى من أخبار النساء»، ص(١٣٢، ١٣٣).

ما كان مثلي يدعى لمثل هذا

كان مرثد عم عمرو بن قميئة الشاعر، عنده امرأة جميلة، وكان قد كبر، وكان يجمع بني أخيه وبني عمه في منزله للغداء كل يوم.. وكان عمرو بن قميئة شابًّا جميلاً، وكان إصبع رجله الوسطى والتي تليها مفترقتين. فخرج مرثد يوماً.. فأرسلت امرأته إلى عمرو بن قميئة: «ابن عمك يدعوك».. فلما دخل عليها لم يجد عمَّه.. فأنكر أمرها.. فراودته عن نفسها.. فقال لها: لقد جئت بأمر عظيم.. وما كان مثلي يُدعى لمثل هذا!.. قالت: لتفعلنَّ ما أقول لك أو لأسُوأنّك.. قال: إلى المساءة دعوتني.. ثم إنه قام فخرج.. فاحتالت عليه حيلة.. فأمرت بجفنة فكُبت على أثر رجله.. فلما رجع مرثد وجدها غاضبة.. فقال لها: مالك؟.. قالت: إن رجلاً من قومك قريب القرابة.. جاء يراودني عن نفسي ويريد فراشك منذ خرجت.. قال: ومن هو؟ قالت: أما أنا فلا أسميه.. ولكن قم فاقتفِ أثره تحت الجفنة.. فلما رأى الأثر عرفه.. فأعرض عنه وجفاه.. ولم يزده على ذلك.. وكان أعجبَ الخلق إليه.. وعرف ابن قميئة ذلك.. وكره أن يخبره فقال:

لعمرك ما نفسي بجدّ رشيدة تؤامرني شرًّا لأصرم مرثدا

عظيم رماه القدر لا متعبس ولا مؤيسٌ منها إذا هو أخمدا

فقد ظهرت منه بوائق جمة ... وأفرع في لومي مراراً وأصعدا
على غير ذنب أن أكون جنيتهُ ... سوى قول باغٍ جاهدٍ فتهَجَّدا

فبلغت الأبيات مرثداً، فكشف عن الأمر حتّى تبيَّن له صدقه وعفافه. . فطلَّق امرأته. . وعاد على ما كان عليه لابن أخيه[1].

● قلت: فإذا كان هذا عفاف بعض أهل الجاهلية. . فكيف يكون عفاف أهل الإسلام. . الذين آمنوا بالله ورسوله. . ؟

* * *

(١) المصدر السابق، ص(١٣٤).

قصص
من عفاف أهل الإسلام

إمام أهل العفاف
يوسف الصديق عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٢ـ٢٩].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىَ: وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن يوسف الصِّديق ﷺ من العفاف أعظم ما يكون، فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره، فإنه ﷺ كان شابًّا والشباب مركب الشهوة.

وكان عَزَباً ليس عنده ما يعوِّضه.

وكان غريباً عن أهل وطنه، والمقيم بين أهله وأصحابه

يستحيي منهم أن يعلموا به فيسقط من عيونهم، فإذا تغرَّب زال هذا المانع.

وكان في صورة المملوك والعبدُ لا يأنف مما يأنف منه الحر.

وكانت المرأة ذات منصبٍ وجمال. والداعي مع ذلك أقوى من داعي مَنْ ليس كذلك.

وكانت هي المطالبة فيزول بذلك كُلْفَةُ تَعَرُّض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمراودة التي يزول معها ظنُّ الامتحان والاختبار لتعلم عفافه من فجوره.

وكانت في محل سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذي لا تناله العيون، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب لتأمن هجوم الداخل على بغتة، وأتته بالرغبة والرهبة، ومع هذا كلِّه عفَّ لله ولم يُطِعْها، وقدّم حق الله وحق سيدها على ذلك كله، وهذا أمر لو ابتلي به سواه لم يُعْلَم كيف كانت تكون حاله.

فإن قيل: فقد همَّ بها، قيل عنه جوابان:

أحدهما: أنه لم يَهُمَّ بها، بل لولا أن رأى برهان ربه لهَمَّ، هذا قول بعضهم في تقدير الآية.

والثاني: وهو الصواب أن همَّه كان همَّ خَطَرات فتركه لله فأثابه الله عليه، وهمُّهَا كان همَّ إصرارٍ بذلت معه جُهْدَها فلم تصل إليه فلم يستوِ الهَمَّان.

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: الهمُّ همَّان: همٌّ

خَطَرات وهمٌّ إصرار، فهمُّ الخطرات لا يؤاخذ به، وهمُّ الإصرار يؤاخذ به[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: وأما يوسف الصديق فلم يذكر الله عنه ذنباً، فلهذا لم يذكر الله عنه ما يناسب الذنب من الاستغفار، بل قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]. فأخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء، وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوء ولا فحشاء.

وأما قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤] (همّ) اسم جنس تحته «نوعان» كما قال الإمام أحمد: الهمّ همّان: همّ خطرات، وهمّ إصرار، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ **«إن العبد إذا همّ بسيئة لم تكتب عليه، وإذا تركها لله كُتِبت حسنة، وإن عملها كُتِبت له سيئة واحدة»**[٢] وإن تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليه سيئة.

ويوسف ﷺ همَّ همًّا تركه لله، ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه، وذلك إنما يكون إذا قام المقتضي للذنب وهو الهم، وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله.

---

(١) «روضة المحبين» ص(٣٢٥، ٣٢٦).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٤٩١) كتاب الرقاق. ومسلم رقم (١٢٨، ١٢٩) كتاب الإيمان.

فيوسف عليه السلام لم يصدر منه إلا حسنة يثاب عليها، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وأما ما يُنْقَل: من أنه حل سراويله، وجلس مجلس الرجل من المرأة، وأنه رأى صورة يعقوب عاضًا على يده، وأمثال ذلك. فكله لم يخبر الله به ولا رسوله، وما لم يكن كذلك فإنما هو مأخوذ عن الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء وقدحاً فيهم، وكل مَن نقله من المسلمين فعنهم نقله؛ لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا ﷺ حرفاً واحداً.

وقوله: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾ [يوسف: ٥٣]. فمن كلام امرأة العزيز، كما يدل القرآن على ذلك دلالة بيِّنة، لا يرتاب فيها من تدبَّر القرآن، حيث قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

فهذا كله كلام امرأة العزيز، ويوسف إذ ذاك في السجن، لم يحضر بعد إلى الملك، ولا سمع كلامه ولا رآه؛ ولكن لمَّا ظهرت براءته في غيبته ـ كما قالت امرأة العزيز ـ: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي لم أخنه في حال مغيبه عني وإن كنت في حال شهوده راودته ـ فحينئذٍ قال الملك: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، وقد قال كثير من المفسرين: إن هذا من كلام يوسف، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول، وهو قول في غاية الفساد، ولا دليل عليه؛ بل الأدلة تدل على نقيضه، وقد بسط الكلام على هذه الأمور في غير هذا الموضع[١].

عفاف مرثد بن أبي مرثد الغنوي

كان مرثد بن أبي مرثد الغَنَوي رجلاً شديداً.. وكان يحمل الأسرى من مكة إلى المدينة..

قال مرثد: فدعوت رجلاً لأحمله.. وكان بمكة بغيٌّ يقال لها: عَنَاق.. ـ وكانت صديقتي في الجاهلية ـ فخرجت عناق.. فرأت سوادي في ظلّ الحائط.. فقالت: مَن هذا؟ مرثد!!.. مرحباً وأهلاً يا مرثد.. انطلق الليلةَ فَبِتْ عندنا في الرحْل..

قلت: يا عناق! إن رسول الله ﷺ حرَّم الزنا..

قالت: يا أهل الخيام! هذا الدُّلْدُل[٢].. هذا الذي يحمل أُسَرَاءكم من مكة إلى المدينة.. فسلكتُ الخَنْدَمَةَ[٣].. فطلبني ثمانيةٌ.. فجاءوا حتى قاموا على رأسي فبالوا.. فطار بولُهم عليَّ

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١٠/٢٩٦ ـ ٢٩٨).

(٢) الدلدل: القنفذ.

(٣) الخندمة: جبل بمكة.

وأعماهم الله عنّي. . فجئتُ إلى صاحبي فحملتُه. . فلما انتهيتُ به إلى الأراك فككتُ عنه كَبْله[1]. . فجئت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! أنكحُ عناقَ؟ فسكت عني. . فنزلت: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [النور: ٣] فدعاني رسول الله ﷺ فقرأها عليَّ وقال: «لا تنكحها»[2].

عفّة عثمان بن أبي طلحة

هذه هي عفة المسلم. . وكرامته. . ومروءته. . رجل يرافق امرأة أياماً متتالية في سفر. . فلا ينظر إليها. . ولا يتعرَّض لها بسوء. . حتى يوصلها إلى زوجها. . ولندع أم سلمة رضي الله عنها تروي قصَّتها فتقول:

«حبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبوسلمة إلى المدينة، قالت: ففُرِّق بيني وبين ابني وبين زوجي. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريباً منها، حتى مرّ بي رجل من بني عمي ـ أحد بني المغيرة ـ فرأى ما بي فرحمني. فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟ قالت: فقالوا

---

(١) كبله: القيد الضخم.

(٢) أخرجه النسائي رقم (٣٢٢٨) كتاب النكاح. . وأخرجه أبوداود رقم (٢٠٥١) مختصراً في كتاب النكاح. والترمذي رقم (٣١٧٧) كتاب تفسير القرآن.

لي: ألحقي بزوجك إن شئت. قالت: فردّ بنو عبدالأسد إليّ عند ذلك ابني. قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خلق الله، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبدالدار. فقال: إلى أين يا ابنة أبي أمية؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أوما معك أحد؟ قلت: ما معي أحد إلا الله وبني هذا. فقال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي[1]، فوالله! ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه. كان إذا بلغ المنزل أناخ[2] بي ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحطّ عنه، ثم قيّده في الشجرة ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها. فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحّله، ثم استأخر عني وقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقادني حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة. فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية ـ وكان أبوسلمة بها نازلاً ـ فادخليها على بركة الله. فكانت أم سلمة تحفظها له وتقول: «ما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة»[3].

---

(١) يهوي بي: أي يسرع بي.
(٢) أناخ بي: أبرك بعيري.
(٣) «حياة الصحابة» (١/ ٢٧٤).

تصبر على المرض ولا تصبر على الانكشاف

قال ابن عباس لعطاء بن أبي رباح: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قال عطاء: بلىٰ.. قال: هذه المرأة السوداء.. أتت النبيَّ ﷺ فقالت: إني أُصرع.. وإني أتكشَّف.. فادع الله لي.. فقال رسول الله ﷺ: «**إن شئتِ صبرتِ ولكِ والجنة.. وإن شئتِ دعوتُ الله أن يعافيكِ**».. قالت: أصبر.. قالت: فإني أتكشف.. فادع الله ألا أتكشَّف.. فدعا لها[1].

أرأيتِ أختاه! إنها تصبر على المرض.. تصبر على الصرع.. تصبر على البلاء.. ولكنها لا تصبر على أن ينكشف شيء من بدنها وعورتها.. لأنها امرأة عفيفة.. طاهرة.. نقية.. ولذلك بُشِّرَت بالجنة وهي تمشي على الأرض..

منعني الحياء وإكرام عرضي

مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في بعض طرق المدينة، فسمع امرأةً تقول:

دعتني النفسُ بعد خروج عمروٍ إلى اللذاتِ فاطّلع التلاعا

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٦٥٢) كتاب المرض. ومسلم رقم (٥٤) كتاب البر والصلة.

فقلت لها عجلتِ فلن تُطاعي ولو طالت إقامته رباعا
أحاذرُ إن أطعتكِ سبَّ نفسي ومخزاةً تجلِّلُني قناعا

فدعا عمر بالمرأة وقال لها: أيُّ شيء منعك؟ قالت: الحياء وإكرام عرضي. فقال رضي الله عنه: إن الحياء ليدل على هناتٍ ذات ألوان؛ من استحيا استخفى، ومن استخفى اتقى، ومن اتقى وُقي. ثم كتب إلى أمير زوجها فأقفَله ـ أي أرجعه ـ إليها[1].

رائحة المسك

أينما غدا أو راح وجد منه الناسُ ريحاً طيبة.. إنها رائحة المسك.. يا ترى! ما سبب هذه الرائحة؟ هل يضع على بدنه المسك كلّ ساعة؟ أم أن هناك سرًّا لهذا الأمر..

سألوه يوماً: إنا نشم منك رائحة المسك على الدوام.. فما سببها؟

وكانت المفاجأة..

قال: والله الذي لا إله غيره.. إن لي سنين عديدة لم أستعمل المسك..

الله أكبر.. لم يستعمل المسك منذ سنين.. ومع ذلك تفوح منه رائحة المسك على الدوام.. كيف ذلك؟

(١) «حلية المرأة المسلمة» ص(٣٠، ٣١).

قال: سبب ذلك أن امرأة احتالت عليَّ حتى أدخلتني دارها.. وأغلقت دوني الأبواب.. وراودتني عن نفسي.. تريد الفاحشة.. تريد الرذيلة.. غلبتها شهوتها.. وانتصرت عليها غريزتها.. فأرادت أن أشاركها متعتها المحرَّمة..

امتنعت من ذلك.. وأردت الخروج.. فقالت: إذا تحركت نحو الباب مرة أخرى.. فسوف أصرخ في الناس وأقول لهم: لقد اقتحم بيتي وأراد أن يغتصبني.. فتحيرتُ في أمري.. وضاقت بي الحيل.. حتى هداني الله إلى حيلة.. فقلت لها: أريد الحمام.. فأمرت جارية لها أن تمضي بي إلى الحمام.. فلما دخلت الحمام.. أخذت العذرة [الغائط] ودلكت بها جميع جسمي وملابسي.. ثم خرجت إليها وأنا على تلك الحالة.. فلما رأتني دهشت ونفرت مني.. ثم أمرت بإخراجي.. فخرجت.. ونجوت بفضل الله تعالى.. ثم ذهبت فاغتسلت وتطهرت.. فلما كانت تلك الليلة رأيت في المنام قائلاً يقول لي.. فعلتَ ما لم يفعله أحد غيرك.. لأُطَيبنَّ ريحك في الدنيا والآخرة.. فأصبحت والمسك يفوح مني.. واستمرَّ ذلك إلى الآن!!

أتدرون من هذا الرجل الأشم؟.. من هذا الطاهر العفيف؟.. من هذا التقي النقي الذكي؟ إنه أبوبكر المِسْكي رحمه الله تعالى[1]...

---

(١) «الجزاء من جنس العمل» (٢/ ١٢٨)، مع إعادة في الصياغة.

عِفّوا تعِفّ نساؤكم

عِفّوا تعفّ نساؤكم في المحرم ... وتجنّبوا ما لا يليق بمسلم
يا هاتكاً سبل الرجال وقاطعاً ... سبل المودة عشت غير مكرَّمِ
لو كنت حرًّا من سلالة ماجد ... ما كنت هَتَّاكاً لحرمة مسلم
من يَزْنِ يُزْنَ به ولو بجداره ... إن كنت يا هذا لبيباً فافهم!!
من يَزْن في بيتٍ بألفي درهم ... في بيته يُزْنىٰ بغير الدرهم!!

فبتُّ أقاسي الليل أرعىٰ نجومَه

ضرب عبدالملك بن مروان بعثاً إلى اليمن فأقاموا سنين حتى إذا كان ذات ليلة وهو بدمشق قال: والله لأعسَّن[1] الليلة، ولأسمعن الناس ماذا يقولون في البعث الذي أغزيت فيه رجالهم، وأغرمتهم أموالهم.

فبينما هو في أزقتها إذا هو بصوت امرأة قائمة تصلي فتسمَّع إليها، فلما انصرفت إلى مضجعها قالت: اللهم مسيِّر النُّجب ومُنزِّل الكتب ومعطي الرَّغب، أسألك أن ترد لي غائبي فتكشف به همي وتقر به عيني، وأسألك أن تحكم بيني وبين عبدالملك بن مروان الذي فعل بنا هذا. ثم أنشدت تقول:

---

(١) لأعسنَّ: العسُّ هو الطواف بالليل للكشف عن أهل الريبة.

تطاول هذا الليل فالعين تدمع وأرَّقني حزن لقلبي موجع
فبِتُّ أقاسي الليل أرعى نجومَه وبات فؤادي بالهوى يتقطع
إذا ما تذكرت الذي كان بيننا وجدت فؤادي حسرةً يتصدع
وكلّ حبيب ذاكر لحبيبه يرجّى هواه كل يوم ويطمع
فذا العرش فَرِّج من صبابتي فأنت الذي تدعو العباد فيسمع
دعوتك في السراء والضرِّ دعوةً على حاجة بين الشَّراسيف[1] تلدغ

فقال عبدالملك لحاجبه: تعرف هذا المنزل؟ قال: نعم، هذا منزل يزيد بن سنان، قال: فما المرأة منه؟ قال: زوجته، فلما أصبح سأل: كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالوا: ستة أشهر، فأمر بردِّه.

فهذه المرأة العفيفة لم تجد لها ملجئاً وملاذاً إلا ربها ومولاها تشكو إليه حاجتها وفراق زوجها عنها.. وتستعين على ذلك بالصبر والصلاة والدعاء[2].

فيا أختاه! يا أيتها العفيفة الماجدة!! المرأة المسلمة لا تعرف الخيانة.. المرأة المسلمة لا تعرف الخداع والمكر.. المرأة المسلمة تجهل حيل الساقطات لإيقاع المغفلين في شباكهن.. وتأملي مدح الربِّ جل وعزّ للنساء بأنهن «غافلات»[3]

(١) الشراسيف: جمع شرسوف، وهو الطرف اللين من الضلع مما يلي البطن.
(٢) «العفة ومنهج الاستعفاف» ص(١١٠، ١١١).
(٣) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا =

أي غافلات عن الشرِّ والخنا والفجور، فهي غفلة محمودة، طالما أنها تؤدي إلى الحياء والطهر والعفاف.

عفاف الكفل

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبيَّ ﷺ يحدِّث حديثاً، لو لم أسمعه إلا مرةً أو مرتين حتى عدَّ سبع مَرَّاتٍ، ولكني سمعته أكثر من ذلك... سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كان الكِفْلُ من بني إسرائيل لا يتورَّع من ذنبٍ عمله، فأتتْه امرأةٌ فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها.. فلمَّا قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعَدَت وبكت.. فقال: ما يبكيك؟ أأَكْرهتُكِ؟ قالت: لا.. ولكنه عملٌ ما عملتُه قطّ.. وما حملني عليه إلا الحاجة**[1]**.. فقال: تفعلين أنتِ هذا وما فَعَلْتِهِ؟ اذهبي والدنانير لك. ثم قال: والله لا أعصي الله بعدها أبداً.. فمات من ليلته.. فأصبح مكتوباً على بابه: إن الله قد غفر للكفل**»[2].

= وَٱلْآخِرَةِ﴾ [النور: ٢٣].

(١) الحاجة لا تبرر ذلك أبداً ولذلك قيل: تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها.

(٢) رواه الترمذي رقم (٢٤٩٦) كتاب صفة القيامة، وقال: حديث حسن، وصححه ابن حبان والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ووافقه الذهبي.

لا أبغي الفجور إلى الممات

هو فتى جميل.. ممتلئ حيوية ونشاطاً.. خرج مجاهداً في سبيل الله عز وجل.. فضلَّ طريق الجيش.. ووقع في فلاة من الأرض.. وهناك وجد امرأة ترعى غُنَيْمات لها.. فذهب إليها لعلّها تدله على الطريق.. ولكنه وقع في نفسها.. وراودته عن نفسه.. فابتعد عنها وقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].. فلم تنزجر.. وقالت له: أما تحسن غير هذا؟.. قال: بلى أحسن.. قال رسول الله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[(١)].. قالت: أما تحسن غير هذا؟.. قال: بلى أحسن.. ثم أنشد:

ولست من النساء ولَسْن مني ولا أبغي الفجور إلى المماتِ

ثم تركها وذهب.

إنه عفاف الشباب.. عفاف المسلم.. عفاف المجاهد في سبيل الله.. فأين أنتم يا شباب اليوم من ذلك؟

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٤٢٥) كتاب المحاربين. ومسلم رقم (١٠٤) كتاب الإيمان.

عفة فتىً أريب[١]

أحبَّها حبًّا شديداً. . وكان فتى جادًّا لا يعرف العلاقات المشبوهة. . ذهب إلى أبيها فخطبها منه. . رفض الأب ذلك. . كادت البنت أن تُجَن. . كيف يرفض هذا الشاب. . ولماذا لم يأخذ رأيي في ذلك. . سوف يدفع الثمن غالياً. . سوف أهرب من البيت وأذهب إلى هذا الشاب. . أرسلت إليه تقول: قد بلغني حبُّك إياي. . وقد أحببتك لذلك لا لغيره. . فإن شئت خرجتُ إليك بغير علم أهلي. . وإن شئت سهَّلت لك المجيء إلى هنا. . ولن أمنعك شيئاً تريده!! فأرسل إليها هذا الشاب الطيب: كلُّ ذلك لا حاجة لي فيه. . إني أخاف أن يلقيني حبّك في نارٍ لا تُطفأ. . وعذاب لا ينقطع أبداً. . فلما جاءها الكتاب بكت وندمت على تسرّعها. . . وأقبلت على عبادة الله عز وجل. . .

عواقب الذنوب[٢]

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واعلم ـ وفقك الله ـ أن المعاصي قبيحةُ العواقب سيئة المنتهىٰ، وهي وإن سرَّ عاجلُها، ضرَّ آجلها، ولربما تعجَّل

(١) «روضة المحبين» ص(٣٣٠)، بتصرف.
(٢) «ذم الهوى» ص(١٥١، ١٥٢).

ضرُّها، فمن أراد طيب عيشه فليلزم التقوىٰ، فقد روىٰ أبوهريرة عن النبي ﷺ قال: «**قال ربكم عز وجل: لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل، وأطلعتُ عليهم الشمسَ بالنهار، ولم أسمعهم صوتَ الرعدِ**»[١].

فمتى رأيت ـ وفقك الله تكديراً في حال: فتذكر ذنباً قد وقع، فقد قال الفضيلُ بن عياض: إني لأعصي الله، فأعرف ذلك في خُلُقِ دابتي وجاريتي!!

وقال **أبوسلمان الداراني**: من صَفَّىٰ صُفِّي له، ومن كدَّر كدِّر عليه، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله.

وقد روينا عن بعض الصالحين أنه انقطع شِسْعُ نعلِه في عدْوِه إلىٰ الجمعة فقال: إنما انقطع لأني لم أغتسلْ للجمعة[٢]!!

فتفكر ـ وفقك الله ـ في أن الذنوب تنقضي لذَّتها وتبقىٰ تبعتها.

ثم تفكَّر وفقك الله فيما أكسبك الذنب من الخجل، فقد قيل للأسود بن يزيد عند موته: أبشر بالمغفرة. فقال: وأين الخجل مما المغفرة منه! وكان بعض الحكماء يقول: هب أن المسيء قد غفر له. أليس قد فاته ثواب المحسنين؟!

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٥٩) بسند ضعيف.

(٢) فانظر ـ رحمني الله وإياك ـ كيف كانت محاسبتهم لأنفسهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله يغارُ، وإن المؤمن يغار، وغَيْرة الله أن يأتي المؤمنُ ما حُرّم عليه»[١].

وفي حديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «ألا وإن لكل مَلِك حِمى، ألا وإن حِمَى الله محارمه»[٢].

عفاف مدرس

يحكي الشيخ علي الطنطاوي قصة شابّ مدرس فيقول: هذه قصة شاب مدرس في ثانوية البنات حديث السن، لم يجاوز الرابعة والعشرين إلى الآن. معتزل متفرِّد عاكف على كتبه ودفاتره. لا يخالف الناس، وليس ممن يبتغي الظهور فيهم والحظوة لديهم، وهذا الشاب ابن صديق من أدنى أصدقائي إلى قلبي.. وكان في صباه تلميذاً لي.. وكان من أذكى الطلاب قلباً وأطهرهم نفساً.. وأمتنهم خُلُقاً. وأتقاهم لله في سرّ وفي علن.. وكان على صغره جادًّا بعيداً عن المزاح، مجتنباً الهزل. بارًّا بأمه وأبيه. لا يعرف إلا مدرسته وبيته. لم يُرَ قط واقفاً في الطريق، أو ماشياً إلى لهو..

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٢٢٢، ٥٢٢٣) كتاب النكاح، ومسلم رقم (٣٦) كتاب التوبة.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٢) كتاب الإيمان، ومسلم رقم (١٠٧) كتاب المساقاة.

وثبت على ذلك حتى شبَّ وأكمل الدراسة. وفارق المدرسة. وهو لم يدخل قهوة ولا سينما، ولم يصاحب أحداً أبداً. ولم يجالس امرأة غير أمه ولم يكلمها.

وكان لذلك بمنزلة الأخ الأصغر مني، أحبه محبة الابن، ويُجلّني إجلال الوالد. وكان ينفض إليَّ دخيلته، ويكشف لي سريرته، وكان من مزاياه أنه صادق اللهجة، لم أجرّب عليه في هذه المدة الطويلة كذباً قط..

وانقطع عني مدة طويلة، ثم رأيته فأخبرني أن والديه قد توفّيا بالتيفوئيد في شهر واحد، وأنه غدا وحيداً فاحترف التعليم، وبعثتْ به الوزارة، لِمَا تعلم من عِظَم أخلاقه إلى مدرسة ثانوية للبنات، فثار وأبىٰ، وطلب نقله إلى غيرها من مدارس البنين، فما زالوا به يدارونه ويقنعونه بأنه إن كان معلمَ البناتِ رجل مثله، فذلك خير لهن من أن يدخل عليهن فاسق خبيث، وإن قبوله التدريس في هذه المدرسة قربة إلى الله، فخُدِع المسكين وقبل!

قال: وبتُ ليلة افتتاح المدرسة بليلة نابغيّة لم ينطبق فيها جفناي من الفكر والوساوس والمخاوف، فلما أصبح الصباح ذهبت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى. حتى دخلت المدرسة، فما راعني عند الباب إلا فتاتان كاملتا الأنوثة ليستا بالصغيرتين ولا القاصرتين قد دخلتا أمامي. فلما صارتا من داخل ألقتا عنهما الخمار، فعادتا كأنهما في دارهما، وتلفتُّ حولي فإذا ملء الساحة فتيات نواهد نواضج الأجساد، قد حَسَرْنَ ورحن يلعبن ويمشين،

شعورهن مهدلات على الأكتاف. فأحسست كأنما قد صبَّ عليَّ دلو من الماء الحامي. فاحترقت منه أعصابي. فاستدرت راجعاً ونفضت يدي من الوظيفة. وقلت: الرزق على الله.

وقصدتُ بيتي فما وسعني والله البيت، ووسوس إليَّ ـ لا أكتمك ـ الشيطان، وزيَّن لي تلك المتعة بمعاشرة أولئك الفتيات، والحياة بينهن، فاستعذت بالله، وأعرضت عنه، وذهبت أفتش عن عمل غير هذا. فسدَّت في وجهي الأبواب إلا هذا الباب، ولاحقتني الوزارة وإدارة المدرسة حتى عدت مكرهاً.

وأنا رجل رُضْت نفسي على العفاف، وأخذتها بضروب الرياضات حتى سكنت شرّتها. ولكنها مع ذلك كانت تثور بي كلما سبقت عيني وأنا غافل إلى فتاة في الشارع كاشفة، أو سمعت أذني حديثاً من أحاديث الشبان سقط إليَّ وأنا لا أطلبه.

لقد كتب عليَّ أن أجالس النهار كله فتيات كزهرة الفلّ، أو كالغلالة الجديدة، لم تمسسهن يد بشر، ولم يعرفن من تجارب الحياة ما يتقين به شباكها، وطلب مني أن أكون عفيفاً شريفاً، وأن يكنَّ هن أيضاً عفيفات شريفات، وله في نفوسهن مثل الذي لهن في نفسه؟

يا أستاذ! إن الخطر أشد مما تتوهمون أنتم معشر الكتاب المعتزلين في بيوتهم أو في أبراجهم العاجيَّة ـ كما يقولون عن أنفسهم ـ الخطر أشد بكثير... شباب وشابات، يُصبي كلاً منهما أن يشم ريح الآخر من مسيرة فرسخ، يجتمعون على دروس الأدب

وقراءة أشعار الغزل. . .

وتنطلق البنت حرة تزور معلمها في داره. . وتمشي معه إن دعاها إلى السينما أو المتنزّه. . كذلك يرى الآباء اليوم بناتهم فلا ينكرون ذلك عليهم!!

دخلت يا سيدي ودرَّسْت، وكنت أغض بصري ما استطعت وأحافظ على وقاري، ولا أنظر في وجوه الطالبات إلا عابساً، وكنت مع ذلك أداري من أثرهن في أعصابي مثل شفرة السيف الحديد، وإذا قرع الجرس خرجت قبلهن مهرولاً حتى لا أماشيهن ولا أدنو منهن، فذهبت مسرعاً إلى داري أصلي وأسأل الله أن يصرف عني هذه المحنة، وأن يجعل رزقي في غير هذا المكان، وكنت أصوم وأقلل الطعام لأطفئَ هذه النار، فإذا مشيت إلى الفصل وسمعت كلامهن، وسبقت عيني إلى بعض ما يبدين من أعضائهن وزينتهن زادت ضراماً واشتعالاً!

وكان فيهن طالبة هي. . . لا. . لست أصفها ولا ينفعك وصفها، وحسبك أن تعلم أنها ذكية ومتقدمة في رفيقاتها، وأنها من أسرة من أنبل الأسر، وأنها فوق ذلك جميلة جداً. . . جداً. . . إنها تمثال، هل رأيت مرة تمثال الجمال والفتنة. . . ؟ وكانت كلما نظرتْ إليَّ قرأت في عينيها كتاباً مفتوحاً، رسالة صريحة لي أنا وحدي، وأحسست منها بمثل شرارات الكهرباء تخرق قلبي. . . فكنت أزداد عبوساً وإعراضاً، فلا يردها عبوسي ولا يثنيها إعراضي، وأسرعتْ مرة ورائي وأنا خارج وهي تناديني:

«سؤال يا أستاذ»... ولها في صوتها رنَّة... يا لطيف..! فوقفت لها فجعلتْ تدنو مني حتى شعرت كأني ألامس.. ألامس ماذا؟ لا أجد والله شيئاً أشبهها به، لأنه ليس في الدنيا شيء آخر له مثل هذا التأثير... فهربت منها وأسرعت إلى الدار، وحرصت على ألا أدعها أو أدع غيرها تفعل مثل هذا!

وعقدت العزم عقداً مبرماً على ترك التدريس، وخرجت من الفصل بهذه العزيمة. وكان في الساحة تلميذات فرقة أخرى في درس الرياضة، وقد اصطففن بالشَّلْحات. كاشفات الأفخاذ والأذرع، راسخات النهود، يقفن كذلك بين الرجال (والمعلمون كلهم رجال)... فكبر رأسي وأسرعت إلى الشارع، وقد حلفت ألا أعود ولو متّ جوعاً، وبعثت بكتاب الاستقالة!

ومرت أيام وكنت وحدي في الدار ـ وأنا وحدي دائماً لا لي زوجة ولا قريب ـ فإذا الباب يقرع، فقمت ففتحت وإذا بها تدخل عليَّ، وتغلق الباب وراءها، وترفع الغشاء عن وجهها، وتلقي المعطف عن منكبيها، تحدثني.. تطلب درساً خصوصيًّا. وعيناها تحدثانني تطلبان أو لقد خيَّلت لي أعصابي أنهما تطلبان غير الدرس.. ولست يا أستاذي رجل سوء ولا أليف دعارة، ولكني رجل على كل حال... فلما رأيتها في داري... وتحت يدي... والباب مغلق... وهي تريد... ملكني الشيطان... ورأيت الدنيا تدور بي، ولما حاولت أن أتكلم اختنق صوتي ثم خرج وفيه بحَّة غريبة كأني أسمع معها صوت إنسان آخر غيري،

وهممت يا أستاذ.. ولكن صوت الدين رنَّ في أذني، ينادي لآخر مرة كما يصرخ الغريق آخر صرخاته... فاستجبت له... ولو أعرضت عنه لحظة لضاعت هذه الفرصة إلى الأبد، ولخسرت أنا والبنت الدنيا والآخرة من أجل لذة لحظة واحدة... ولم أتردد بل قلت لها بصوت بارد كالثلج، قاطع كالسيف، خشن كالمبرد: «يا آنسة، أنا آسف، إن هذه الزيارة لا تليق بطالبة شريفة، فاخرجي حالاً!»... وفتحت لها الباب وأغلقته خلفها، وتم ذلك كله في دقيقة[1]! ونجّاه الله تعالى بفضله وكرمه وإحسانه.

فزع إلى الصلاة فنجّاه الله من الفتنة

يروي الشيخ الفاضل جاسم مهلهل الياسين هذه الحكاية العجيبة.. يقول حفظه الله: «حدثني أحد الشباب الطيبين.. الذين عُرفوا بالصلاح والتقوى والاستقامة.. قصةً وقعت له وهو يدرس في الولايات المتحدة الأمريكية.. حيث الغربة.. والمغريات الكثيرة..

قال: انتقلت بالطائرة من ولاية إلى أخرى للوصول إلى مدينتي التي أدرس فيها.. ولبُعد المسافة.. ولأنني نزلت في ولاية يسكن بها أحد أقاربي.. فضلت النزول عنده في بيته لفترة.. أخذت حقيبتي.. وتوجهت إلى منزل قريبي.. وطرقت

---

(١) «قصص من الحياة» للشيخ علي الطنطاوي (١٥١ ـ ١٥٥)، باختصار.

الباب.. ولكن.. يا للهول.. ماذا أرى؟!

شباب وفتيات في وضع مختلط.. وأفعال مخزية.. حين رأيت ذلك المنظر بهتُّ وأخذتني المفاجأة للحظات.. وبعد ذلك أسرعت إلى إحدى الغرف.. وأغلقت الباب خلفي.. واستغفرت الله من ذلك المكان.. ومن تلك الفعال..

حين جلست في الغرفة.. وأغلقت الباب.. وجلست لدقائق.. إذا بفتاة رائعة الجمال تدخل عليَّ الغرفة.. تريد الجلوس معي.. وأظنكم تعرفون ما يتبع ذلك الجلوس.. ولذلك ابتعدت عنها.. وتعجبت من جرأتها في الباطل.. ولكنها لم تخرج.. فماذا أفعل يا إلهي؟

أخذت أدعو في نفسي.. اللهم أبعدني عن الشر وأهله.. اللهم احفظني بحفظك.. وهداني تفكيري إلى أمر.. فقمت أصلي.. لا أعرف هل أنا متجه للقبلة أم لا.. كم ركعة أصلي؟!.. ماذا أقرأ؟ لا أعرف.. لا أدري.. ولكنني أخذت أصلي.. أركع وأسجد وأدعو وأسبح وأستغفر.. وبعد فترة من الزمن.. سئمَت الفتاة من الانتظار.. فذهبت.. وتنفَّست الصعداء.. وحمدت الله على توفيقه.. وأحسست في تلك اللحظات الإيمانية الربانية بعظمة الصلاة وفوائدها الكثيرة.. شعرت في ذلك المنزل كأنني عصفور في قفص يتحين الفرصة للهرب.. وبالفعل.. جمعت أمتعتي وهربت إلى الحرية.. حيث

الهواء النقي الذي لم تدنسه المعاصي.. وحيث الصحبة الصالحة[١].

امرأة عفيفة وصديق خائن

تسلَّط على هاتف منزلي شخص يتصف بالنذالة والخسة.. كان يتمنى أن أقيم معه علاقة آثمة.. ولكنني كنت أنهره وأسبُّه.. وأحياناً كنت أغلق السماعة في وجهه دون أن أكلمه..

لما يئس مني.. تعمد إفساد حياتي الزوجية وتدميرها.. فكان يتعمد الاتصال وقت قدوم زوجي إلى المنزل.. وبمجرد رفع زوجي للسماعة.. يغلق الخطَّ فوراً..

هاجَمَتْ زوجي الشكوكُ والظنون.. وتحولت حياتنا بسبب ذلك إلى نفور ثم قطيعة.. أصعب شيء على المرأة أن تحسَّ بأن زوجها لا يثق بها..

استشار زوجي أحد أصدقائه المخلصين في شأني.. وكان جريئاً في كذبه وباطله.. فقال له: لقد سمعنا كثيراً عن علاقات زوجتك المشبوهة.. ولكننا لم نخبرك بذلك حرصاً على حياتك الزوجية.. وأملاً في رجوعها إلى طريق الاستقامة.. بعد ذلك وصلت حياتنا الزوجية إلى جحيم لا يطاق.. ذهبت إلى زوجي.. وفي لحظات ساكنة.. أقسمت له أنني بريئة من هذا الكلام.. وأن

---

(١) «صور من العفاف» ص(٢٦ ـ ٣١)، بشيء من الاختصار.

صديقه كاذب ومفترٍ. . بدأ الشكُّ يدبُّ في قلب زوجي تجاه كلام صديقه. . فقرر الكشف عن رقم المتصل. . وذلك عن طريق الاشتراك في خدمة كاشف الرقم. . ولكنه لم يخبر أحداً. . ويفاجأ زوجي بأن المعاكس هو صديقه الذي استشاره في أمري. . وهو الذي يحاول الاعتداء على حرمات بيته. . ويحاول إفساد حياتنا الزوجية وهدم بيتنا الذي بنيناه بالحب والإخلاص. .

أسألك بالله ألاَّ تهتك ستري

يقول أحد الدعاة: كنت في رحلة دعوية إلى بنجلاديش مع فريق طبي أقام مخيماً لعلاج أمراض العيون. . فتقدّم إلى الطبيب شيخٌ وقور ومعه زوجته بتردد وارتباك. . ولمّا أراد الطبيب المعالج أن يقترب منها. . فإذا بها تبكي وترتجف من الخوف. . فظنّ الطبيب أنها تتألم من المرض. . فسأل زوجها عن ذلك. . فقال وهو يغالب دموعه: إنها لا تبكي من الألم. . بل تبكي لأنها ستضطر أن تكشف وجهها لرجل أجنبي! . . لم تنم ليلة البارحة من القلق والارتباك. . وكانت تعاتبني كثيراً: أوَترضى لي أن أكشف وجهي. . ؟! وما قبلتْ أن تأتي للعلاج إلا بعد أن أقسمتُ لها أيماناً مغلَّظة بأن الله ـ تعالى ـ أباح لها ذلك للاضطرار، والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣].

فلما اقترب منها الطبيب نفرت منه. . ثم قالت: هل أنت مسلم؟. .

قال: نعم، والحمد لله!!

قالت: إن كنت مسلماً. . إن كنت مسلماً. . فأسألك بالله ألا تهتك ستري. . ـ تعني غطاء وجهها ـ إلا إذا كنت تعلم يقيناً أن الله أباح لك ذلك. . !!

أُجريت لها العملية بنجاح. . وأزيل الماء الأبيض. . وعاد إليها بصرها بفضل الله ـ تعالى ـ. . حدّث عنها زوجها أنها قالت: لولا اثنتان لأحببت أن أصبر على حالي ولا يمسني رجل أجنبي: قراءة القرآن. . وخدمتي لك ولأولادك[1].

زوجتك أجمل

قال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أكثر شهوات الحِسِّ النساء، وقد يرى الإنسان امرأة في ثيابها فيتخايل له أنها أحسن من زوجته. أو يتصور بفكره المستحسنات، وفكره لا ينظر إلا إلى الحسن من المرأة، فيسعى في التزوج والتسري.

فإذا حصل له مراده لم يزل ينظر في عيوب الحاصل التي ما كان يتفكر فيها، فيملّ ويطلب شيئاً آخر.

ولا يدري أن حصول أغراضه في الظاهر ربما اشتمل على

---

(١) «مجلة البيان» عدد (١٣٨) ص(١٦٤).

محن؛ منها أن تكون الثانية لا دين لها أو لا عقل أو لا محبة لها أو لا تدبير، فيفوّتُ أكثر مما حصّل. وهذا المعنى هو الذي أوقع الزناة في الفواحش، لأنهم يجالسون المرأة حال استتار عيوبها عنهم وظهور محاسنها، فتلذ لهم تلك الساعة، ثم ينتقلون إلى أخرى.

فليعلم العاقل أن لا سبيل إلى حصول مراد تام كما يريد: ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وما عيب نساء الدنيا بأحسن من قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] وذو الأنفة يأنف من الوسخ صورة، وعيب الخلق معنى.

فليقنع بما باطنه الدين، وظاهره الستر والقناعة. فإنه يعيش مُرَفّه السر، طيب القلب، ومتى ما استكثر فإنما يستكثر من شغل قلبه ورقة دينه[١].

عبيد بن عمير وعفاف العلماء

كانت امرأة جميلة.. يُفتن بها كل من رآها.. إلا من عصم الله تعالى.. نظرت يوماً إلى وجهها في المرآة وقالت لزوجها: أترى أحداً يرى هذا الوجه ولا يفتن؟!.. كان عليه أن ينصحها.. ويأمرها بالتقوى والعفاف.. وينهاها عن المعاصي والغرور.. ولكنه كان رجلاً لا غيرة له.. فلما سألته هذا السؤال قال: نعم..

---

(١) «التبصرة» ص(٢٦٨، ٢٦٩).

هناك من ينظر إلى هذا الوجه الجميل.. والثغر الباسم.. والجسد الناعم ولا يفتن به.. قالت: مَن يكون؟ قال: عبيد بن عمير.. ذلك الشيخ التقي النقي.. فجنَّ جنونها.. وتعجبت.. وكانت جريئة.. فقالت لزوجها: ائذن لي فلأفتننَّه.. سوف أجعله كغيره من الرجال.. ينسى عبادته.. ويلهث وراء الجمال والحسن والدلال.. هكذا أنتم جميعاً يا معشر الرجال.. فقال زوجها: أذنت لك!!.. كيف يأذن لها أن تتكشف لرجل أجنبي؟! كيف يأذن لها تتكسر وتتغنج وتتمايل لتفتن عبداً من عباد الله وإماماً من أئمة الهدى والصلاح.. ذهبت المرأة إلى عبيد بن عمير.. وكان في المسجد الحرام.. فأتته كالمستفتية.. فوقف معها في ناحية المسجد.. فنزعت الغطاء عن وجهها.. فأسفرت عن وجه مثل فلقةِ القمر.. فهل تأثر عبيد بن عمير؟.. قال لها: يا أمة الله استتري.. قالت: إني قد فُتنت بك.. وليتأمل كلٌّ منا نفسه في هذا الموقف.. ماذا سيكون تصرفه حينما تأتي امرأة من أجمل النساء.. وتسفر له عن وجهها.. وتبذل نفسها له.. وتقول له: إني قد فتنت بك..

قال لها عبيد بن عمير: إني سائلك عن شيء.. إن أنت صدقتيني نظرتُ في أمرك.. قالت: لا تسألني عن شيء إلا صَدَقتك.. قال: أخبريني.. لو أن ملك الموت أتاكِ ليقبض روحك.. أكان يسرُّك أن أقضي لك هذه الحاجة وأتابعك على ما تريدين؟

قالت: اللهم لا.. قال: صدقت..

قال: فلو دخلت قبرك.. وأُجلست للمساءلة.. أكان يسرُّك أني تابعتك على ما أردتِ؟

قالت: اللهم لا. قال: صدقت.

قال: فلو أن الناس أُعطوا كتبهم.. ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك.. أكان يسرّك أني تابعتك؟

قالت: اللهم لا. قال: صدقت.

قال: فلو أردتِ الممرَّ على الصراط.. ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين.. أكان يسرّك أني تابعتك؟

قالت: اللهم لا. قال: صدقت.

قال: فلو جيء بالميزان.. وجيء بك فلا تدرين أيخفّ ميزانك أم يثقل.. أكان يسرك أني تابعتك؟

قالت: اللهم لا. قال: صدقت.

ثم قال لها: اتقي الله.. قد أنعم الله عليك.. وأحسن إليك.. ثم تركها وذهب..

رجعت المرأة إلى نفسها.. ولامست كلمات عبيد بن عمير شغاف قلبها.. فندمت على ما فعلت.. ورجعت إلى بيتها نادمة تائبة باكية.. فلما رآها زوجها قال لها: ما صنعت؟ قالت له: أنت بطال.. ونحن بطالون.. ثم أقبلت على الصلاة والصوم والعبادة[١].

---

(١) أصل القصة في «روضة المحبين» ص(٣٤٥، ٣٤٦)، و«المنتقى من ذم =

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها ... من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء في مغبتها ... لا خير في لذة من بعدها النارُ

عفة امرأة عاقلة

يحكى أن راهباً كان في صومعته يتعبَّد.. فمرَّت به امرأة.. فافتتن بها.. فنزل إليها وفتح باب صومعته.. فرأت في عينيه الغدر.. وكأنَّ الشيطان جاثم على قلبه.. قالت له: ماذا تريد؟ قال: تمكنيني من نفسك..!! فقالت: أنت تقول هذا!! هيهات.. لا أفعل ذلك أبداً.. فقال لها: ولِمَ لا؟ قالت: إني أكره أن تكون فضيحتك يوم القيامة على يدي!! فانتبه لنفسه.. ووقع كلامها في قلبه موقعاً.. فقد ذكّرته بالحساب والعذاب.. وصوَّرت له ذلك الموقف العظيم يوم القيامة.. حين ينادى عليه ويفتضح على رؤوس الخلائق.. فعاد إلى رشده.. وصرخ وخرَّ مغشيًّا عليه.. ثم أفاق وقال: إلهي! جُدْ عليَّ بفضلك ورحمتك.. ثم عاد إلى صومعته.. وأخذ يبكي حتى ذهب بصره.. وانحنى من شدة الحزن.. إلى أن مات.

= الهوى» ص(١٢١، ١٢٢) وقد أعدت صياغتها.

لا ترضى إلا بالحرام[1]

عشق رجل من النُسَّاك جارية من البصرة، فبعث يخطبها فأبت وقالت: إن أردت غير ذلك فعلتُ. فأرسل إليها: سبحان الله أيتها المرأة! أدعوك إلى الأمر الصحيح، والحلال الذي لا عيب فيه ولا وزر، وتدعينني إلى ما لا يصلح لي ولا لك! قالت: فأرسلت إليه: قد أخبرتك بالذي عندي.. فإن أردت فتقدَّم.. وإن كرهت فتأخر. فأنشأ الفتىٰ يقول:

أسائلها الحلالَ وتدعُ قلبي ... إلىٰ ما تشتهيه من الحرامِ
كداعي آل فرعون إليه ... وهم يدعونه نحو الغرام
فظلَّ منعماً في الخلد يسعىٰ ... وظلوا في الجحيم وفي السِّقام

فلما علمت أنه قد امتنع عليها من الفاحشة أرسلت إليه: أنا بين يديك علىٰ الذي تحبّ، فكتب إليها: هيهات!! لا حاجة لي فيمن دعاني إلى المعصية وأنا أدعوه إلى الطاعة.. وقال:

لا خير فيمن لا يراقب ربَّه ... عند الهوى ويخافه أحياناً
إن الذي يبغي الهوى ويريده ... كمؤاجرٍ شيطانه شيطانا
حَجَبَ التقى باب الهوى فأخو التقى ... عفُّ الخليقة زائد إيمانـاً

---

(١) «المنتقى من ذم الهوى» ص(١١٤، ١١٥)، و«روضة المحبين» ص(٣٣٧).

لا سـبيل إلى الحـرام

ذكر الأستاذ محمود النجيري في كتاب «بانتظار حورية من الجنة» هذه الرواية: حدَّثني بعض إخواني قال:

نشأنا سويًا منذ نعومة أظفارنا، فقد جمع عائلتينا علائق الود والصفاء، وكنت أنا أرتع معها في براءة الطفولة، وأشاركها لعبها ولهوها الغض.

ودارت بنا الأيام على تلك الحال.. حتى انسلخنا من عهد الطفولة الرخِيّ وبدأنا ندخل عهداً جديداً في ألوانه وإحساساته ومشاهده.

بدأت هي تظهر عليها ملامح الأنوثة الفيَّاضة.. وأنا أدخل في طور الشباب، وبطبيعة الحال فقد حَجَبها أهلها ولم يعد ير أحدنا الآخر إلا لماماً.

وافتقدتها كرفيقة اعتدت صحبتها دوماً، وظننت أني لا آبه لفراقها.. إلا أنني لمست في نفسي ميلاً جارفاً نحوها وحبًّا عارماً لشخصها.. كيف وقد درجنا سويًا، ونمت عواطفنا مع نماء أجسادنا، كنت أعلم يقيناً أنها تحبني أيضاً.. لكنني عففت، وحفظني عقلي فسكت.. وتوجهت إلى ربي بكل كياني ونفسي.. أرعى حَرَمه، والتزم حدوده، وانتهج شرعه.. وعزمت في نفسي أن أتزوجها حينما يتيسر الأمر.

والحق أنني جاهدت نفسي جهاداً طويلاً حتى أقمع ذلك الشوق الجارف إليها وألطف من ذلك الحنوّ العظيم نحوها.. وربط الله على قلبي وألهمني الصبر.

وعِفَّ في الحبِّ ولا تبدِه   واصبر وكاتم غاية الجهد
فإن تمت محتسباً صابراً   تفز غداً في جنة الخلد

وذات يوم وبينما أنا في بيتي وليس فيه غيري.. إذ دخلت علي هي بجمالها وبهائها، بجلالها وعنفوانها.. واتجهت صوبي باسطة كفها، وتخطف بصري جمالها الأخّاذ وسحرها الفتَّان، وهممت بمصافحتها والإقبال عليها.. لكنني تذكرت أن هذا ليس من حقي.. فغضضت من طرفي.. وجمَّدت يدي وأدرت لها عطفي وقلت: «ليس أحد بالمنزل.. أوما تعلمين ذلك؟».. فأجابت في صوت متهدج متقطع: «بلى، أعلم ذلك جيداً.. ولذا أتيت.. إنك لا تدري ما أصابني بعدك.. إنني.. إنني» وانقطع كلامها ببوادر بكاء.

ووقفت جامداً لا أدري ما أقول وما أفعل.. وظللت للحظة أدافع نفسي عن أشياء كثيرة أرادتها.. لقد كانت هذه الخلوة وضعاً خاطئاً.. ثم إن الشيطان قد بدأ ينسج خيوطه.. ويوري ناره، يجب ألاَّ أهُن منذ البداية، وأن أقطع دابر الغواية.. فترفقت وقلت لها: «لا أحد بالمنزل.. هل تفهمين؟.. لا أحد بالمنزل.».

كنت أعلم أن كلامي سيكون وقعه شديداً عليها.. ولكن لا مخرج إلا بذاك، وصح ظني فقد استدارت محنقة وخرجت.

فحمدت الله وتمثلت قول الشاعر:

واسوأتا لفتىً له أدب ... يضْحَى هواهُ قاهراً أدَبَه
يأتي الدنيَّةَ وهو يَعرِفُها ... فيشين عِرضاً صائناً أَرَبَه
فإذا ارعوى عادت بصيرتُهُ ... فبكى على الحين الذي سُلِبَه[1]

عفة امرأة من العرب

أم جعفر بنت عبدالله.. امرأة من الأنصار من بني حطمة.. عفيفة ذات دين وشرف.. ابتليت بالأحوص، أحد الشعراء الذين ملأوا أشعارهم بالزور والبهتان.. فشبّب بها في شعره.. وقال فيها أشعاراً كثيرة.. واختلق أشياء بينهما لا وجود لها في الحقيقة.. فوقعت في حرج شديد.. وانقسم الناس ما بين مصدّق ومكذب.. فلما كثر فيها القول.. جاءت في كامل سترها وحشمتها.. فوقفت عليه في مجلس قومه وهو لا يعرفها.. فقالت له: اقبضني ثمن الغنم التي ابتعتها مني.. فقال: ما ابتعت منك شيئاً.. فأظهرت كتاباً قد زورته عليه.. وبكت وشكت حاجةً وضرًّا وفاقة.. وقالت: يا قوم كلّموه.. فكلّمه قومه.. وقالوا له: اقض حقَّ المرأة.. فجعل يحلف مجتهداً أنه ما رآها قط وأنه لا يعرفها.. فانتشر الخبر بينهما.. واجتمع الناس.. وكثروا وسمعوا ما دار بينهم.. وكثر لغطهم.. فمنهم من نصر المرأة..

---

(١) «العفة ومنهج الاستعفاف» ص(١١٣، ١١٤).

ومنهم من نصر الأحوص. . فلما انتشر الخبر بين الناس. . قامت المرأة وقالت: يا عدوّ الله. . صدقت والله. . وما لي عليك حق. . وأنت لا تعرفني. . وقد حلفتَ بذلك وأنت صادق. . وأنا أم جعفر التي تتحدث عنها في شعرك وتقول: قلت لأم جعفر. . وقالت لي أم جعفر. . وأنت في ذلك كاذب. . فبُهِت الأحوص وخجل أمام قومه. . وظهرت براءة المرأة وعفَّتها[١]. .

عواقب الشهوات

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة؛ فإنها إما أن توجب ألماً وعقوبة، وإما أن تقطع لذَّة أكمل منها، وإما أن تضيع وقتاً حسرة وندامة، وإما أن تثلم عرضاً توفيره أنفع للعبد من ثلمه، وإما أن تذهب مالاً بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدراً وجاهاً قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ من قضاء الشهوة، وإما أن تطرق لوضيع إليها طريقاً لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب همًّا وغمًّا وحزناً وخوفاً لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسي علماً ذكره ألذ من نيل الشهوة، وإما أن تشمت عدوًّا وتحزن وليًّا، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيباً يبقى صفة لا تزول؛ فإن الأعمال تورث

---

(١) «ابتلاء الأخيار بالنساء الأشرار» ص(٣١٠)، بتصرف.

الصفات والأخلاق[١].

وقال أيضاً:

* اقشعرت الأرض، وأظلمت السماء، وظهر الفساد في البر والبحر من ظلم الفجرة، وذهبت البركات، وقلَّت الخيرات، وهزلت الوحوش، وتكدرت الحياة من فسق الظلمة، وبكى ضوء النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة، وشكا الكِرام الكاتبون والمعقِّبات إلى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح. وهذا والله منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه، ومؤذن بليل بلاء قد ادلهم ظلامه. فاعزلوا عن طريق هذا السبيل بتوبة نصوح ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح. وكأنكم بالباب وقد أغلق، وبالرهن وقد غلق، وبالجناح وقد علق ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧][٢].

استعدَّ للموت فنجّاه الله من الحرام والقتل

عبدالعزيز غلام الهندي.. كان يعمل ترزيًا في المعسكر الإنجليزي.. إبان الاحتلال الإنجليزي لمصر.. كان مثالاً للخُلُق والنزاهة والشرف والأمانة..

وفي أحد الأيام دعته زوجة أحد كبار الضباط لينفذ لها بعض أعمال الخياطة والتفصيل.. ذهب إلى منزلها.. وكان لا يمكنه أن

---

(١) «الفوائد» ص(٤٠٢).

(٢) «الفوائد» ص(٧٥، ٧٦).

يمتنع.. فالامتناع معناه عصيان الأوامر العسكرية.. بل قد يمكن أن يكون معناه معاداة التدخل العسكري الإنجليزي في مصر.. انفردت به زوجة هذا الضابط في منزلها.. فرأت من جمال صورته وحسن هندامه ما جعلها تطمع فيه.. وتدعوه إلى نفسها.. وتغريه بكلّ أنواع المغريات..

ابتعد عبدالعزيز عنها.. ووعظها.. ونصح لها.. وخوَّفها.. وزَجَرَها.. ولكنها أصرَّت.. وهدَّدت.. وتوعَّدت.. وأخرجت المسدس وصوَّبته إلى صدره.. وقالت له: طلقة واحدة من هذا المسدس.. وسوف تصبح بعدها جثة هامدة.. وسيُقال إنك هاجمتني في منزلي وأردت الفجور بي.. فدافعت عن نفسي وقتلتك.. أنت لا تساوي سوى رصاصة واحدة..

ومع كل ذلك ثبت صاحبنا على عفافه وتقواه.. وقال في نفسه: وماذا سيضرني أن ألقى ربي شهيداً. أليس هذا أفضل من أن ألقاه زانياً خبيثاً؟!.. ثم أغمض عينيه واستعدَّ للموت وصرخ في يقين: «لا إله إلا الله.. محمد رسول الله».. فهال المرأة ما سمعته من هذه الصيحة الخالدة.. وارتعشت يدها.. وسقط المسدس على الأرض.. وعلمت أنها قد خسرت المعركة.. فأخذت تدفع أخانا بكلتا يديها إلى الخارج.. وهذا بالفعل ما أراد.. فظلَّ يجري حتى وصل إلى برِّ الأمان[1].

(١) «مذكرات الدعوة والداعية» ص(٧٦)، مع إعادة في الصياغة.

فواسوأتاه واللهُ راءٍ وسامع

نزل السري بن دينار إلى مصر.. واستأجر داراً يقيم فيها.. وكان بجواره دار لامرأة جميلة تفتن الناس بجمالها وزينتها.. فلما علمت أن السريَّ رجل صالح قالت: لأفتننَّه.. فكانت تجلس له في طريقه في زينتها.. ولكنه كان يمضي دون أن يراها.. فزادها ذلك تصميماً على فتنته.. فدخلت عليه الدار يوماً.. ثم كشفت له عن مفاتنها.. فقال لها: مالك يا فلانة؟ أي شيء تريدين؟

فقالت له: هل لك في فراش وطيّ.. وعيش رخيّ.. ثم تمددت أمامه.. فماذا كان تصرفه رَحِمَهُ اللهُ؟ هل طاوعها؟ هل انقاد لغرائزه وشهوته؟ هل قال: هذا مجرد ذنب والله غفور رحيم.. لا.. وألف لا.. ولكنه بكىٰ رَحِمَهُ اللهُ ثم وعظها قائلاً:

وكم ذي معاصٍ نال منهن لذةً ... فما تخلّاها وذاق الدواهيا
تصرَّم لذات المعاصي وتنقضي ... وتبقى تِبَاعاتُ المعاصي كما هيا
فواسوأتا والله راءٍ وسامعٌ ... لعبد بعين الله يغشى المعاصيا

فصاحت المرأة.. وبكت.. وأعلنت توبتها على يد السريّ.. ولزمت طريق العبادة والطاعة[1]..

---

(١) من شريط: «صور مشرقة للعفيفات»، بتصرف.

(١٠٠٠) درهم إن فَتَنَتْ الربيع بن خيثم

امرأة أخرى من أجمل النساء.. كان يغشاها الفُسَّاق.. فقالوا لها يوماً: لكِ ألف درهم إن فتنتي الربيع بن خيثم.. وكان الربيع من أهل العلم المعروفين بالعبادة والتقوىٰ.. رآه ابن مسعود يوماً فقال له: لو رآك رسول الله ﷺ لأحبَّك.. فوجدت المرأة فرصتها في الحصول على هذا المال الوفير.. فلبست أحسن الملابس.. وتزيَّنت.. وتعطَّرت.. وتعرَّضت للربيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ في طريقه.. ولا تدري المسكينة أنها لن تهز للربيع شعره من جسده الذي امتلأ من محبة الله ومعرفته.. فوقف الربيع لها وقال:

أيتها المرأة! كيف بكِ لو نزلَتِ الحمى بجسمك فغيَّرت من لونك؟ وبهجتك..

أم كيف بكِ لو جاءك ملك الموت.. فقَطَع منك حبل الوتين؟

أم كيف بكِ لو وضعت في قبرك وسألك منكر ونكير؟

أم كيف بكِ لو عرضت على الجبار غداً.. فبأي لسان ستجيبين؟

فصاحت المرأة وبكت.. وغشي عليها فسقطت.. فلما أفاقت قالت: ربّ إني تبت إليك.. ربّ إني تبت إليك، وكانت

بعد ذلك من العابدات الصالحات المؤمنات[١].

دع ذلك ليوم التغابن

قال رجل: هويت امرأة من الحي.. فكنت أتبعها إذا خرجت.. فكثر تتبعي لها.. فعرفتْ ذلك مني..

وفي ذات ليلة.. شعرتْ بي أنني أتتبعها.. فوقفتْ.. والتفتت إليَّ فقالت: ألك حاجة؟.. قلت: نعم!

قالت: وما هي؟.. قلت: مودتك..

فقالت: دع ذلك ليوم التغابن..

قال: فأبكتني والله.. فما عدت إلى ذلك..

الله أكبر.. ما أجمل العفاف.. ما أجمل الحياء.. ما أجمل النصح.. ما أجمل الطهارة.. ما أجمل مراقبة الله عز وجل.. ما أجمل علو الهمة والتسامي فوق الشهوات.. نعم.. دع ذلك ليوم التغابن.. إنها نصيحة غالية.. بل هي بحق منهج حياة.. وليت شبابنا وفتياتنا يقتدون بهذه النماذج الرائعة من تاريخنا الإسلامي المجيد.. بدلاً من الاقتداء بأهل الفساد ولصوص الأوقات..

---

(١) كتاب «التوابين» ص(٢٧٠، ٢٧١)، بتصرف.

فأيـن مكوكبهـا؟

خرج أعرابي في بعض الليالي المظلمة.. فإذا بجارية لم ير أجمل منها.. فأراد أن يرتكب معها الفاحشة.. وكانت عفيفة.. ماجدة.. قد ربّاها الإسلام على الطُهر والحياء.. فقالت له: أما لك زاجر من عقل.. إذا لم يكن لك ناهٍ من دين؟!

فقال: والله ما يرانا إلا الكواكب..

فقالت: فأين مكوكبها..

أين الله أيها الغافل..

أين الإسلام.. أين العقل والشرف والمروءة.. لماذا ننسى أننا خير أمة أُخرِجت للناس.. وندسُّ رؤوسنا في التراب.. إننا نحمل الخير والنور والنجاة للبشرية جميعاً إذا التزمنا بهذا الدين وسرنا على نهجه.. وليس لنا كرامة ولا وزن ولا شأن بغير هذا الدين..

أنـام ربُّ العالمـين؟

وقعت بعض المتعبدات البصريات في نفس رجل مُهَلَّبي، وكانت جميلة؛ وكانت تُخطب فتأبىٰ، فبلغ المهلبي أنها تريد الحج، فاشترىٰ ثلاثمائة بعير ونادىٰ: من أراد الحج فلْيَكْترِ من فلان المهلبي؛ فاكترت منه، فلما كان في بعض الطرق جاءها ليلاً، فقال: إما أن تزوجيني نفسك، وإما غير ذلك. فقالت:

ويحك!! اتق الله، فقال: ما هو إلا ما تسمعين، والله ما أنا بجمَّال، ولا خرجت في هذا إلا من أجلك.

فلما خافت على نفسها قالت: ويحك، انظر أَبَقي في الرحال أحد لم ينم؟ قال: لا. قالت: عُد فانظر. فمضىٰ وجاء، فقال: ما بقي أحد إلا وقد نام. فقالت: ويحك، أنام ربُّ العالمين؟ ثم شهِقَت شهقة وخرَّت ميتة. وخرَّ المهلَّبيُّ مغشيًّا عليه، ثم قال: ويحي، قتلت نفساً ولم أبلغ شهوتي، فخرج هارباً.

غيدٌ أوانسُ ما هَمَمْن بريبة ... كظباء مكةَ صَيْدُهنَّ حرام
يُحسبن من صِدْقِ الحديث أوانساً ... ويصدُّهنّ عن الخنا الإسلامُ

أين لذةُ معصيتك؟!

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: مَن عاين بعين بصيرته تناهيَ الأمور في بدايتها، نال خيرها، ونجا من شرها. ومن لم ير العواقب غلب عليه الحس، فعاد عليه بالألم ما طلب منه السلامة وبالنصب ما رجا منه الراحة.

وبيان هذا في المستقبل، يتبين بذكر الماضي، وهو أنك لا تخلو، أن تكون عصيت الله في عمرك، أو أطعته.

فأين لذة معصيتك؟ وأين تعب طاعتك؟ هيهات رحل كل بما فيه! فليت الذنوب إذا تخلت خلت!

وأزيدك في هذا بياناً: مثِّلْ ساعة الموت، وانظر إلى مرارة الحسرات على التفريط، ولا أقول: كيف تغلب حلاوة اللذات، لأن حلاوة اللذات استحالت حنظلاً، فبقيت مرارة الأسى بلا مقاوم.

أتراك ما علمت أن الأمر بعواقبه؟ فراقب العواقب تسلم، ولا تمل مع هوى الحس فتندم، شعر:

قد كان عمرك ميلاً فأصبح الميلُ شبرا
وأصبح الشبر عقداً فاحفر لنفسك قبرا[1]

وقال أيضاً رَحِمَهُ اللهُ: مَن تفكَّر في عواقب الدنيا، أخذ الحذر، ومَن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر. ما أعجب أمرك يا من يوقن بأمر ثم ينساه، ويتحقق ضرر حال ثم يغشاه ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

تغلبك نفسك على من تظن، ولا تغلبها على ما تستيقن.

أعجب العجائب، سرورك بغرورك، وسهوك في لهوك عما قد خُبئ لك. تغترُّ بصحتك وتنسى دنوَّ السقم، وتفرح بعافيتك غافلاً عن قرب الألم. لقد أراك مصرعُ غيرِك مصرعَك، وأبدى مضجعُ سواك ـ قبل الممات ـ مضجعَك.

وقد شغلك نيل لذاتك، عن ذكر خراب ذاتك:

كأنك لم تسمع بأخبار من مضى ولم تر في الباقين ما يصنع الدهر!

---

(١) «صيد الخاطر» ص(٣٩).

فإن كنت لا تدري فتلك ديارهم　　محاها مجالُ الريح بعدك والقبر!

كم رأيت صاحب منزل ما نزل لحده، حتى نزل!

وكم شاهدت والي قصر، وليه عدوُّه لما عُزل!

فيا من كل لحظة إلى هذا يسري، وفعله فعل من لا يفهم ولا يدري..

وكيف تنام العين وهي قريرة؟　　ولم تدر من أيّ المحلّين تنزل؟[١]

لا تحرقيني ونفسك بالنار

عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال: خرج عطاء بن يسار وسليمان بن يسار حاجَّين من المدينة ومعهم أصحاب لهم، حتى إذا كانوا بالأبواء، نزلوا منزلاً، فانطلق سليمان وأصحابه لبعض حاجتهم، وبقي عطاء بن يسار قائماً في المنزل يصلي. فدخلت عليه امرأة من الأعراب جميلة، فلما رآها ظن أن لها حاجة. فأوجز في صلاته ثم قال: ألك حاجة؟ قالت: نعم. قال: ما هي؟ قالت: قم فأصب مني فإني قد ودقت[٢] ولا بعل لي.

فقال: إليك عني، لا تحرقيني ونفسك بالنار.

ونظر إلى امرأة جميلة، فجعلت تراوده عن نفسه، وتأبى إلا ما تريد!

---

(١) «التبصرة» (١/ ١٤٧).

(٢) ودقت: أي شبقت وغلبتني الشهوة.

فجعل عطاء يبكي ويقول: ويحك، إليك عني، إليك عني.

واشتد بكاؤه. فلما نظرت المرأة إليه وما داخله من البكاء والجزع، بكت المرأة لبكائه، فجعل يبكي، والمرأة بين يديه تبكي.

فبينما هو كذلك، إذ جاء سليمان من حاجته.

فلما نظر إلى عطاء يبكي، والمرأة بين يديه تبكي، جلس يبكي في ناحية البيت لبكائهما، لا يدري ما أبكاهما!

وجعل أصحابهما يأتون رجلاً رجلاً، كلما أتى رجل فرآهم يبكون، جلس يبكي لبكائهم، لا يسألونهم عن أمرهم، حتى كثر البكاء وعلا الصوت. فلما رأت الأعرابية ذلك، قامت فخرجت.

وقام القوم فدخلوا.

فلبث سليمان بعد ذلك وهو لا يسأل أخاه عن قصة المرأة إجلالاً له وهيبة، وكان أسن منه.

ثم إنهما قدما مصراً لبعض حاجتهما، فلبثا بها ما شاء الله.

فبينا عطاء ذات ليلة نائم، إذ استيقظ وهو يبكي!

فقال له سليمان: ما يبكيك أي أخي؟!

فاشتد بكاؤه!

قال: وما يبكيك يا أخي؟!

قال: رؤيا رأيتها الليلة.

قال: وما هي؟

قال: لا تخبر بها أحداً ما دمت حيًّا. قال: رأيت يوسف

النبي ﷺ، فجئت أنظر إليه فيمن ينظر. فلما رأيت حسنه بكيت! فنظر إليَّ في الناس فقال: ما يبكيك أيها الرجل؟ قلت: بأبي أنت وأمي، ذكرتك وامرأة العزيز وما ابتُليتَ به من أمرها وما لقيت من السجن وفرقة الشيخ يعقوب عليه السلام، فبكيتُ من ذلك، وجعلت أتعجب منه. فقال عليه السلام: فهلا تعجبت من صاحب المرأة بالأبواء؟ فعرفت الذي أراد، فبكيت، واستيقظت باكياً.

قال سليمان: أي أخي! وما كان حال تلك المرأة.

فقص عليه عطاء القصة.

فما أخبر سليمان بها أحداً حتى مات عطاء؛ وحدَّث بها بعده امرأة من أهله.

وما شاع هذا الحديث بالمدينة إلا بعد موت سليمان بن يسار(١)!

بقي باب عليك لم تغلقه

ذكر القاضي التنوخي أن رجلاً من الجند خطف امرأة من الطريق وأراد اغتصابها.. فعرض له بعض الجيران.. وأرادوا منعه.. فقاتلهم هو وغلمانه حتى تفرَّقوا.. وأخذ المرأة بالقوة.. وأدخلها داره.. وغلَّق الأبواب.. ثم راودها عن نفسها.. فامتنعت.. فأكرهها.. فقاومته.. ولحقها منه عناء وشدة..

---

(١) «الرقة والبكاء» ص(٢١٧ ـ ٢١٩).

فانهارت.. ولم تستطع المقاومة.. فلما أراد أن يجلس منها مجلس الرجل من امرأته.. قالت له: يا هذا.. اصبر حتى تغلق الباب الذي نسيتَ أن تغلقه..

فقال: أي باب هو؟

قالت: الباب الذي بينك وبين الله.. إنه الآن يراك.. فتأثَّر الرجل بهذه الكلمات.. فقام عنها.. وقال: اذهبي.. قد فرّج الله عنك.. فخرجت.. ولم يتعرَّض لها[١].

القتل أيسر عليَّ من الخيانة

عرض الحجاج بن يوسف سجنه يوماً فأتي برجل فقال: ما كان جُرمك؟ فقال: أصلح الله الأمير أخذني العَسَسُ[٢] وأنا مخبرك بخبري، فإن كان الكذب ينجي فالصدق أولىٰ بالنجاة، قال: وما قصتك؟ قال: كنت أخاً لفلان، فضرب الأمير عليه البَعْثَ إلى خراسان، فكانت امرأَتُه تهواني وأنا لا أشعر، فبعثت إليَّ ذات يوم رسولاً أن قد جاء كتابُ صاحبك فهلمَّ لتقرأَه، فمضيت إليها فجعلت تَشْغَلُني بالحديث حتى صلينا المغرب، ثم أظهرت لي ما في نفسها مني ودعتني إلى السوء، فأبيت ذلك فقالت: والله لئن لم تفعل لأصيحنّ ولأقولنّ إنك لص. فخفتها

(١) «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (١/٢٨٦)، بتصرف.

(٢) العسس: حرس الليل.

والله أيها الأمير على نفسي فقلت: أمهليني حتى الليل، فلما صليت العَتَمَةَ(١) وثقت بشدّة حَرَس الأمير فخرجت من عندها هارباً، وكان القتلُ أيسرَ عليَّ من خيانة أخي، فلقيني عَسَسُ الأمير فأخذوني، وقد قلت في ذلك شعراً، قال: وما قلت؟ قال:

رُبّ بيضاءَ آنسٍ(٢) ذاتِ دَلٍّ ... قد دعتني لوصلها فأَبيتُ
لم يكن شأْنيَ العفاف(٣) ولكن ... كنت خِلاً لزوجها فاستحَيْتُ

فأمر بإطلاقه(٤).

نار الدنيا أهون من نار الآخرة

وعن عبدالله بن وهب، أن عابداً من عُبَّاد بني إسرائيل كان يتعبد في صومعته، فجاء نفر من الغواة إلىٰ امرأة بغي، فقالوا لها: لعلك أن تُزيليه عن عبادته وتفتنيه، فجاءته في ليلة مطيرة مظلمة، فنادته.. فأشرف عليها.. فقالت: يا عبدالله! آوِني إليك. فتركها وأقبل علىٰ صلاته ومصاحبه ثاقبٌ(٥)، فقالت: يا عبدالله! آوني إليك أما ترىٰ الظلمة والمطر! فلم تزل به حتىٰ آواها إليه،

(١) العتمة: صلاة العشاء.
(٢) آنس: فتاة كريمة ذات شرف.
(٣) لو امتنع من الفاحشة مخافة الله عز وجل، وحبًا في العفاف، وبغضاً للخيانة، لكان كاملاً.
(٤) «روضة المحبين» ص(٣٥٥).
(٥) ثاقب: أي مضيء.

فاضْطَجعت قريباً منه، فجعلت تريه محاسن خَلْقها حتىٰ دعته نفسه إليها، فقال: لا والله حتىٰ أنظر كيف صبرك علىٰ النار. فتقدم إلى المصباح أو القنديل فوضع إصبعاً من أصابعه فيه، حتىٰ احترقت، ثم عاد إلى صلاته فدعته نفسه أيضاً، وعاود المصباح فوضع إصبعه الأخرىٰ حتىٰ احترقت، فلم تزل نفسه تدعوه وهو يعود إلىٰ المصباح حتىٰ احترقت أصابعه جميعاً، وهي تنظر.

إن أجلي ليس بيدي

وعن أبي سعد بن أبي عمامة، أن رجلاً أحبَّ امرأة فأحبته، فاجتمعا، فراودته المرأة عن نفسه، فقال: إن أجَلي ليس بيدي، وأجلك ليس بيدك، فربما كان الأجل قد دنا، فنلقىٰ الله عاصيَيْنِ. فقالت: صدقت. فتابا وحسُنت حالتهما[١].

قال ابن الجوزي: ولقد بلغنا أن رجلاً عشق امرأة، فمدَّ يده إليها مع طيْشٍ، فقالت له: تأمَّل أمرك.. أتدري ما تريدُ أن تصنع؟ إنما تريدُ أن تبولَ في بالوعةٍ.. لو شاهدتَ داخِلَها لوجدتَه أنتنَ من الكنيف! فبرد وسكن ولم يعاود[٢].

---

(١) «المنتقى من ذم الهوى» ص(١٢٢).

(٢) السابق، ص(١٩٩).

لا تتبعوا خطوات الشيطان(١)

كان عبدالرحمن القس من العبّاد المعروفين.. فمرَّ يوماً بسلّامة المغنية وهي تغني ـ وانظروا رحمكم الله إلى خطر الغناء ـ فلما سمع صوتها في الغناء افتتن بها.. فوقف يسمع غناءها من الخارج.. فلما رآه مولاها فرح به لأنه كان معروفاً بالعبادة والزهد.. فأدخله إليها ليكون قريباً منها وهي تغني.. فوقعت في قلبه.. ووقع بقلبها.. وعشقها وعشقته.. وسقط من عزّ الطاعة إلى ذلّ المعصية.. ومن محبة الله عز وجل إلى محبة أهل المعاصي.. ومن هنا حذَّر العلماء من فتنة الغناء وقالوا: الغناء بريد الزنا.. ورقية الشيطان.. ومزمور الشيطان.. وهو الباطل.. ووحي الشيطان.. ولهو الحديث.. وغير ذلك من الأسماء..

أخذ عبدالرحمن القسّ يتردد على سلامة ويسمع غناءها.. فقالت له يوماً وقد خلا المجلس.. أنا والله أحبك.. فقال: وأنا والله أحبك.. فقالت: أشتهي أن أضع فمي على فمك.. وألصق صدري على صدرك.. وأضمك إليَّ.. وتضمني إليك.. فقال: وأنا أشتهي ذلك..

---

(١) «ابتلاء الأخيار بالنساء الأشرار» ص(٢٩٣)، بتصرف. والخبر في كتاب «التوابين» ص(٢٤٤، ٢٤٥).

قالت: فما يمنعك من ذلك..

فارتعد جسده.. وأدركته الخشية من الله..

فقال لها: ويحك!.. أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ثم عاد إلى طريقه وانصرف ولم يعد إليها أبداً.

توبة بغي وعابد[1]

قال الفقيه أبوالليث ـ رحمه الله تعالى ـ: سمعت أبي يحكي: أن في بني إسرائيل، كانت امرأة بغي، وكانت مفتنة للناس بجمالها، وكان باب دارها ـ أبداً ـ مفتوحاً، فكل من مرَّ ببابها رآها قاعدة في دارها على السرير بحذاء الباب، فكل من نظر إليها افتتن بها، فإذا أراد الدخول إليها، احتاج إلى إحضار عشرة دنانير، أو أقل، أو أكثر، حتى تأذن له بالدخول عليها، فمرَّ ببابها ذات يوم عابد من العُبَّاد، فوقع بصره في الدار، وهي قاعدة على السرير، فافتتن بها، فجعل يجاهد نفسه، ويدعو الله تعالى ليزيل ذلك من قلبه، فلم يزل ذلك عنه، وكان يكابد بنفسه المكابدة الشديدة، حتى باع قماشاً كان له، وجمع من الدنانير ما يحتاج إليه فجاء إلى بابها، وأمرت أن يسلّم ذلك إلى وكيل لها، وواعدته وقتاً لمجيئه، فجاء إليها في ذلك الوقت، وقد تزيَّنت، وجلست في بيتها على

---

(١) «تنبيه الغافلين» ص(١٢١، ١٢٢).

سريرها، فدخل عليها العابد، وجلس معها على السرير، فلما مد يده إليها، وانبسط إليها، تداركه الله برحمته، وبركة عبادته المتقدمة، فوقع في قلبه أن الله تعالى يراني في هذه الحالة، فوق عرشه، وأنا في الحرام، وقد أحبط عملي كله، فوقعت الهيبة في قلبه، وارتعدت فرائصه، وتغيَّر لونه، فنظرت المرأة إليه، فرأته متغيِّر اللون. فقالت: أي شيء أصابك؟ قال: إني أخاف ربي، فائذني لي بالخروج.

فقالت له: ويحك، إن كثيراً من الناس يتمنون الذي وجدته، فأي شيء هذا الذي أنت فيه؟ فقال لها: إني أخاف الله، وإن المال الذي دفعته إليك هو حلال لك، فأذني لي بالخروج.

فقالت له: كأنك لم تعمل هذا العمل قط؟ قال: لا. فقالت: من أين أنت؟ وما اسمك؟ فأخبرها أنه من قرية كذا، واسمه كذا. فقالت: اخرج، فخرج من عندها، وهو يدعو بالويل والثبور، ويبكي على نفسه، ويحثو التراث على رأسه، فوقعت الهيبة في قلب المرأة. فقالت في نفسها: إن هذا الرجل أول ذنب أذنبه، وقد دخل عليه من الخوف ما دخل، وإني قد أذنبت منذ كذا وكذا سنة، وإن ربه الذي يخاف منه هو ربي، فخوفي منه ينبغي أن يكون أشد. فتابت إلى الله، وأغلقت بابها عن الناس، وأقبلت على العبادة.

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل　　خلوت ولكن قل عليَّ شهيد
لهونا لعمر الله حتى تتابعت　　ذنوب على آثارهن ذنوب

فلا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفي عليه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرعُ ذاهباً وأن غداً للناظرين قريبُ

فاصبر صبراً جميلاً

الصبر في اللغة: الحبس، وكلُّ من حبس شيئاً فقد صبره. ومنه المصبورة التي نهي عنها، وهي الدجاجة ونحوها، تتخذ غرضاً وترمى حتى تقتل. وسمي رمضان شهر الصبر؛ لأنه شهر تحبس فيه النفس عما تنازع إليه من المطعم والمشرب والمنكح، والصابر حابس لنفسه عما تنازع إليه من المشتهى، أو شكوى ألم. وسمي الصابر في المصيبة صابراً لأنه حبس نفسه عن الجزع.

واعلم وفقك الله، أن الصبر مما يأمر به العقل، وإنما الهوى ينهى عنه، فإذا فوضلت فوائد الصبر وما تجلب من الخير عاجلاً وآجلاً، بانت حينئذٍ فضائل العقل وخساسة الهوى.

واعلم أن الصبر ينقسم قسمين: صبر عن المحبوب، وصبر على المكروه.

فالطاعة مفتقرة إلى الصبر عليها، والمعصية مفتقرة إلى الصبر عنها. ولما كانت النفس مجبولة على حب الهوى وكانت بالطبع تسعى في طلبه، افتقرت إلى حبسها عما تؤذي عاقبته. ولا يقدر على استعمال الصبر إلا من عرف عيب الهوى وتلمح عقبى الصبر، فحينئذٍ يهون عليه ما صبر عليه وعنه.

وبيان ذلك بمثل، وهو أن امرأة مستحسنة مرت على رجلين، فلما عرضت لهما اشتهيا النظر إليها، فجاهد أحدهما نفسه وغضَّ بصره، فما كانت إلا لحظة ونسي ما كان، وأوغل الآخر في النظر، فعلقت بقلبه فكان ذلك سبب فتنته وذهاب دينه.

فبان لكم أن مداراة المعصية حتى تذهب، أسهل من معاناة التوبة حتى تقبل. وقد قال بعض السلف: من تخايل الثواب خف عليه العمل(١).

إنــي أخــاف الله

قال الحسن بن زيد: ولينا بديار مصر رجلٌ، فوجد علىٰ بعض عماله فحبسه وقيَّده، فأشرفت عليه ابنة الوالي، فهويته فكتبت إليه، وكان قد نظر إليها(٢):

أيهـــا الـــرامـــي بعينيـــه وفـي الطـرف الحتـوفُ
إن تُـــرد وصْـــلاً فقـــد أمـــكنــك الظبــيُ الألــوف

فأجابها الفتى:

إن تَــرَيْنــي زانِــيَ العينيـــن فــالفــرجُ عفيــفُ
ليـــس إلا النظـــر الفـــاتــرُ والشّعــر الظــريــفُ

فكتبت إليه:

---

(١) «ذم الهوى» لابن الجوزي ص(٥٢).
(٢) وهذا من مفاسد إطلاق البصر فتنبه!

قــد أردنــاك علــىٰ عشـ ـقِــك إنســانــاً عفيفــاً
فتــأبيــتَ فــلا زلـ ــتَ لقيــدك حليفــاً

فأجابهــا:

مــا تــأبيــتُ لأنــي كنــت للظبــي عَيــوفــاً[1]
غيــر أنــي خِفــتُ ربًّــا كــان بــي بَــرًّا لطيفــاً

فذاع الشعر وبلغ الخبر الوالي، فدعا به، فزوَّجه إياها ودفعها إليه[2].

عفــة جاريــة

عن بكر بن عبدالله المُزني، أن قصَّاباً ولع بجارية لبعض جيرانه، فأرسلها أهلها إلىٰ حاجة لهم في قرية أخرىٰ، فتبعها فراودها عن نفسها، فقالت: لا تفعل، لأنا أشد حبًّا لك منك لي، ولكني أخاف الله.

قال: فأنت تخافينه، وأنا لا أخافه، فرجع تائباً.

لا تســقط جاهــك عنــده

قال وهب بن منبه: كان في بني إسرائيل رجل من العُبَّاد شديد الاجتهاد، فرأىٰ يوماً امرأة، فوقعت في نفسه بأول نظرة، فقام مسرعاً حتىٰ لحقها.

---

(١) عيوفاً: كارهاً.

(٢) «المنتقى من ذم الهوى» ص(١٢٢).

فقال: رويدك يا هذه. فوقفتِ وعرفته.

فقالت: ما حاجتك؟

قال: أذات زوج أنت؟

قالت: نعم، فما تريد؟

قال: لو كان غير هذا كان لنا نظر في ذلك.

قالت: وما نظرك؟

قال: عرض بقلبي من نظرك عارض.

قالت: وما يمنعك من إنفاذه؟

قال: وتتابعيني علىٰ ذلك؟

قالت: نعم. فخلت به في موضع، فلما أن رأته مجداً في الذي ينال.

قالت: رويدك يا مسكين لا تسقط جاهك عنده.

قال: فانتبه لها، وسكن عن قلبه ما كان يجد من فتنتها.

وقال: لا حرمك الله ثواب فعلك، فلم يزل يبكي علىٰ تلك المعصية حتىٰ مات.

من الذي يطيق غضب الله

كان شابًّا ذا عبادة وورع.. لازم المسجد الجامع وكان حريصاً على صلاة الجماعة.. وكان حسن الوجه.. حسن القامة.. حسن السمت.. فنظرت إليه امرأة ذات جمال وحسب.. فشغفت به.. وطال ذلك عليها.. فوقفت له يوماً على

طريقه.. وهو يريد منزله.. فقالت له: يا فتىٰ! اسمع مني كلمات أكلمك بها.. ثم اعمل ما شئت.. فأطرق مليًّا وقال لها:.. هذا موضع تهمة.. وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً..

فقالت له: والله وما وقفت موقفي هذا جهالة مني بأمرك.. وأنتم معاشر العُبَّاد في مثال القوارير.. أيُّ شيء يعيبه.. وجملة ما أكلمك به أن جوارحي كلّها مشغولة بك.. فالله في أمري وأمرك..

فمضىٰ الشاب إلىٰ منزله، وأراد أن يصلي فلم يعقل كيف يصلي، فأخذ قرطاساً وكتب كتاباً، ثم خرج من منزله، فإذا بالمرأة واقفة في موضعها. فألقىٰ إليها الكتاب ورجع إلىٰ منزله.

وكان الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم. اعلمي أيتها المرأة، أن الله تبارك وتعالىٰ إذا عُصي حَلِم، فإذا عاود العبد المعصية ستره، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله عز وجل لنفسه غضبةً تضيق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب، فمن ذا يطيق غضبه؟!

فإن كان ما ذكرت باطلاً، فإني أذكِّرك يوماً تكون السماء كالمُهل، وتصير الجبال كالعِهْن[1]، وتجثو الأمم لصولة الجبار العظيم. وإني والله قد ضعفت عن إصلاح نفسي، فكيف بإصلاح غيري!

---

(١) العهن: الصوف.

وإن كان ما ذكرت حقًّا، فإني أدلك على طبيب هو أولىٰ بالكُلوم[١] الممرضة والأوجاع المرمضَة[٢]، ذلك الله رب العالمين. فاقصديه علىٰ صدق المسألة، فإني متشاغل عنك بقوله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٨، ١٩]. فأين المهرب من هذه الآية؟

أوصيك بحفظ نفسك من نفسك.. وأذكرك قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

والله ما لي طاقة بمحن ربي

وهذا شاب آخر.. هويته امرأة.. وكانت تقف له في طريقه الذي يسير فيه.. وتطلب منه الوصال والمنادمة.. فوقف ذات مرة وقال لها:

أيتها المرأة، إن لله محناً يمتحن بها عباده وأولياءه وأحباءه، لينظر كيف طاعتهم له، وكيف إيثارهم إياه عند اجتماع شهوات قلوبهم. وما أظن إلا أن الله ابتلاني بك ليمتحنني. والله ما لي طاقة بمحن ربي إن لم يوفقني ويثبتني. ووالله لَمفارقة الأحبة في مرضاته أحبُّ إليَّ من المقام معهم، والاشتغال بما يقطعني عن

---

(١) الكلوم: الجروح.
(٢) المرمضة: الشديدة.

خدمته والتحبب إليه. وإني والله ما أنا براضٍ عن نفسي في خدمة مَن إليه فقري وحاجتي. فكيف إذا علّقتها ببلاء لا يمكنني التخلص منه؟ وتركها وذهب.

كم قد ظفرتُ بمن أهوى فيمنعني ... منه الحياء وخوف الله والحذر

كذلك الحبُّ لا إتيان فاحشة ... لا خير في لذة من بعدها سَقَرُ

ادَّعى أنه مصاب بالإيدز لينجو من فتنة امرأة

بطل قصتنا هذه المرة شاب عفيف. . يعرف الإيمان طريقه إلى قلبه. . وتعرف مخافة الله دربها إلى روحه الطاهرة النقية. .

هو شاب يعمل طياراً في الخطوط الجوية الكويتية. . ذهب مرة إلى إحدى الدول. . وحين وصل إلى هناك. . ذهب ليستريح من عناء السفر والقيادة المتعبة. . وجلس في غرفته بعد أن صلى المغرب والعشاء جمعاً وقصراً. . وبعد الصلاة جلس يذكر الله عز وجل. . طرق الباب. . فذهب ليفتحه. . فإذا به يسمع صوتاً ناعماً رقيقاً. . وقالت له صاحبة هذا الصوت: أأنت فلان؟. . قال: نعم. . فقالت. . إني أريد أن أتحدث معك في غرفتك. . وتَفَاجأ هذا الشاب الصالح من هذا الطلب الغريب الذي يخلو من الحياء. . فكيف يسمح لها بالدخول. . والرسول ﷺ يقول: **«ما خلا رجل بامرأة، كان الشيطان ثالثهما»**[١]. . فاعتذر لها بأنه لا

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/٢٦)، والترمذي رقم (٢١٦٦) كتاب الفتن، =

يستطيع إدخالها في غرفته لأنه متعب.. ولكنها كانت مصرَّة على الدخول.. فأخذت تطرق عليه الباب بقوة.. وترجوه أن يفتح لها.. وقالت له: إنها تشعر بالوحدة والملل.. وتريد أن تقضي معه وقتاً ممتعاً لن ينساه..

فهداه تفكيره إلى كذبة.. قد تنجيه من هذه الفاحشة.. وهذا الشر.. فقال لها: إنني مصاب بالإيدز.. وما إن أكمل كلمة «إيدز» حتى سمع خطواتها وهي تسرع بالهرب بعيداً عن غرفته..

وتنفَّس أخونا الشاب العفيف نَفَسَ الراحة.. وهدأت نفسه.. وحمد الله الذي صرف عنه هذا الشر العظيم[1].

دنــاءة الهمــة[2]!!

قال ابن الجوزي:

بلغني عن بعض فُسَّاق القدماء أنه كان يقول:

ما أرى العيش غير أن تتبع النفسُ هواها فمخطئاً أو مصيباً..

فتدبرت حال هذا وإذا به ميت النفس، ليس له أنفة على

= وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وله شاهد أخرجه أحمد في «المسند» (٣/٣٣٩) وهو حسن بشواهده وانظر: «صحيح الجامع» رقم (٦٥٠٦).

(١) «صور من العفة» ص(٤٧ ـ ٥٠).

(٢) «التبصرة» ص(٢٧١، ٢٧٢).

عرضه ولا خوفُ عار.

ومثل هذا ليس في مسلاخ الآدميين، فإن الإنسان قد يُقْدِم على القتل لئلا يُقال جبان، ويَحمل الأثقال ليُقال ما قصَّر، ويخاف العار فيصبر على كل آفة من الفقر، وهو يستر ذلك حتى لا يُرى بعين ناقصة.

حتى أن الجاهل إذا قيل له يا جاهل غضب، واللصوص المتهيئون للحرام إذا قال أحدهم للآخر لا تتكلم، فإن أختك تفعل وتصنع، أخذته الحمية فقتل الأخت.

ومن له نفس لا يقف في مقام تهمة لئلا يظن به.

فأما من لا يبالي أن يرى سكران، ولا يهمه أن شُهر بين الناس، ولا يؤلمه ذكر الناس له بالسوء فذاك في عِداد البهائم.

وهذا الذي يريد أن يتبع النفس هواها لا يلتذ به، لأنه لا يخاف عنتاً ولا لوماً ولا يكون له عرض يحذر عليه، فهو بهيمة في مسلاخ إنسان.

وإلا فأي عيش لمن شرب الخمر وأُخِذ عقيب ذلك وضُرِب وشاع في الناس ما قد فعل به.

أما يفي ذلك باللذة؟ لا. بل يربو عليها أضعافاً.

وأي عيش لمن ساكن الكسل إذا رأى أقرانه قد برزوا في العلم وهو جاهل.

أو استغنوا بالتجارة وهو فقير، فهل يبقى للالتذاذ بالكسل والراحة معنى؟

ولو تفكر الزاني في الأحدوثة عنه، أو تصور أخذ الحدّ منه، لكف الكفَّ. غير أنه يرى لذة حاضرة كأنها لمع برقٍ، ويا شؤم ما أعقبت من طول الأسى!

هذا كله في العاجل. فأما الآجل فمنغصة العذاب دائمة، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨].

نسأل الله أنفة من الرذائل وهمة في طلب الفضائل إنه قريب مجيب.

رسالة إلى شاب عفيف

قال عبدالله بن علوان: أُثبت كلمة طريفة للكاتب الكبير الأستاذ علي الطنطاوي، تمثل لوناً من الوعي الإسلامي المعاصر للشباب، فهي نموذج فريد للفهم البصير، والإقناع الهادئ الذي يدعو إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة.

يقول رحمه الله في رسالة له: «يا بُنيَّ: لماذا تكتب إليَّ على تردد واستحياء؟ تحسب أنك أنت وحدك الذي يحس هذه الوقدة في أعصابه من ضرم الشهوة، وأنك أنت وحدك الذي اختصَّ بها دون الناس أجمعين؟!

لا يا بُني: هوِّن عليك، فليس الذي تشكو داءك وحدك، ولكنه داء الشباب، ولئن أرَّقك هذا الذي تجد، وأنت في السابعة عشرة، فلطالما أرّق كثيرين غيرك، صغاراً وكباراً، ولطالما نفى

من عيونهم لذيذ الكَرَى[1]، ولطالما صرف عن درسه التلميذ، وعن عمله العامل، وعن تجارته التاجر . .

فماذا يصنع الفتى في هذه السنوات، وهي أشد سني العمر اضطرام شهوة، واضطراب جسد، وهياجاً وغلياناً؟!

ماذا يصنع؟

هذه هي المشكلة!

أما سُنَّة الله، وطبيعة النفس، فتقول له: تزوج.

وأما أوضاع المجتمع، وأساليب التعليم فتقول له: اختر إحدى ثلاث كلها شر، ولكن إياك أن تفكر في الرابعة التي هي وحدها الخير، وهي الزواج!

١ ـ **إما أن تنطوي على نفسك**، على أوهام غريزتك، وأحلام شهوتك، تدأب على التفكير فيها، وتغذيها بالروايات الداعرة، والأفلام الفاجرة، والصورة العاهرة، حتى تملأ وحدها نفسك، وتستأثر بسمعك وبصرك، فلا ترى حيثما نظرت إلا صور الغيد الفواتن، تراهن في الكتاب إن فتحته، وفي طلعة البدر إن لمحته، وفي حمرة الشفق، وفي سواد الليل، وفي أحلام اليقظة، وفي رؤى المنام . .

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل

---

(١) الكرى: النوم.

ثم لا تنتهي بك الحال إلا إلى الهوس أو الجنون أو انهيار الأعصاب.

٢ ـ **وإما أن تعمد إلى ما يسمونه «الاستمناء» (العادة السرية):**

وقد تكلم في حكمه الفقهاء، وقال فيه الشعراء.. وهو إنْ كان أقل الثلاثة شرًّا وأخفَّها ضرراً، لكنه إن جاوز حده ركب النفس بالهم، والجسم بالسَّقم، وجعل صاحبه الشاب كهلاً مُحطَّماً، كئيباً مستوحشاً، يفرّ من الناس ويجبن عن لقائهم، ويخاف الحياة ويهرب من تبعاتها، وهذا حكم على المرء بالموت وهو في رباط الحياة.

٣ ـ **وإما أن تغرف من حمأة**[١] **اللذَّة المحرَّمة**، وتسلك سبيل الضلال، وتؤم[٢] بيوت الفحش، تبذل صحتك وشبابك ومستقبلك ودينك في لذَّة عارضة، ومتعة عابرة، فإذا أنت قد خسرت الشهادة التي تسعى إليها، والوظيفة التي تحرص عليها، والعلم الذي أمَّلت فيه، ولم يبق لك من قوتك وفتوتك ما تضرب به في لُجّ العمل الحُر.

ولا تحسب بعد أنك تشبع.. كلا إنك كلما واصلت واحدة زادك الوصال نهماً، كشارب الماء الملح لا يزداد شرباً إلا ازداد عطشاً، ولو أنك عرفت منهن آلافاً ثم رأيت أخرى متمنعة عليك،

---

(١) الحمأة: يقال: حمأ البئر: إذا أخرج حمأتها وترابها.
(٢) تؤم: أي تقصد.

معرضة عنك، لرغبت فيها وحدها، وأحسست من الألم لفقدها مثل الذي يحسه من لم يعرف امرأة قط.

وَهَبْك وجدت منهن كل ما طلبت، ووسعك السلطان والمال، فهل يسعك الجسد، وهل تقوى الصحة على حمل مطالب الشهوة؟

دون ذلك وتنهار أقوى الأجساد، وكم من رجال كانوا أعاجيب في القوة، وكانوا أبطالاً في الرّبع والصّرْع والرمي والسّبق، ما هي إلا أن استجابوا إلى شهواتهم، وانقادوا إلى غرائزهم حتى أمسوا حطاماً..

إن من عجائب حكمة الله، أن جعل مع الفضيلة ثوابها: الصحة والنشاط.

وجعل مع الرذيلة عقابها: الانحطاط والمرض. . وَلَرُبَّ رجل ما جاوز الثلاثين، يبدو مما جار على نفسه كابن ستين، وابن ستين يبدو من العفاف كَشاب في الثلاثين.

ومن أمثال الإفرنج التي سمعناها وهي حق وصدق «مَن حفظ شبابه حفظت له شيخوخته»[1].

---

(١) بل هذا من كلام المسلمين، قال أبوالطيب طاهر بن عبدالله الطبري: «هذه جوارح حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر». «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٦٦).

المخرج من الفتنة

وكأني أسمعك تقول: هذا الداء فما هو الدواء؟

الدواء أن تعود إلى سُنَّة الله وطبائع الأشياء التي طبعها الله عليها، إن الله ما حرم شيئاً إلا أحلَّ شيئاً مكانه، حَرَّم المراباة وأحلَّ التجارة، وحرَّم الزنى وأحلَّ الزواج، **فالدواء هو الزواج**.

فإذا لم يتيسر لك الزواج.. فليس إلا التسامي، وأنا لا أريد أن أعقد هذا الفصل الذي كتبته ليكون مفهوماً واضحاً، بمصطلحات علم النَّفس، لذلك أعمد إلى مثال أمثّله لك:

أترى إلى إبريق الشاي الذي يغلي على النار؟!

إنك إن سددته فأحكمت سدّه، وأوقدت عليه، فجَّره البُخار المحبوس، وإن فرقته سال ماؤه فاحترق الإبريق، وإن وصلت به ذراعاً كذراع القاطرة، أدار لك المصنع، وسير القطار، وعمل الأعاجيب..

فالأُولىٰ: حالة من يحبس نَفْسَه على شهوته، يفكر فيها ويعكف عليها.

والثانية: حال من يتبع سبيل الضلال، ويؤم مواطن اللَّذة المحرَّمة.

والثالثة: حالة المتسامي (المستعفّ).

فالتسامي هو أن تنفس عن نفسك بجهد روحي أو عقلي أو

قلبي أو جسدي . . يستنفذ هذه القوة المدخرة، ويخرج هذه الطاقة المحبوسة . . بالالتجاء إلى الله والاستغراق في العبادة، أو بالانقطاع إلى العمل والانغماس في البحث، أو بالتفرغ للفن والتعبير عن هذه الصور التي تصورها لك غريزتك، بالألفاظ شعراً، أو بالألوان لوحة، أو بالجهد الجسدي والإقبال على الرياضة، والعناية بالتربية الدِّينية أو البطولة الرياضية.

والإنسان ـ يا بني ـ محب لنفسه لا يُقدِّم أحداً عليها، فإذا وقف أمام المرآة، ورأى استدارة كتفيه، ومتانة صدره، وقوة يديه، كان هذا الجسم الرياضي المتناسق القوي . . أحب إليه من كل جسد أنثى، ولم يرضَ أن يضحي به، ويذهب قوته، ويعصر عضلاته، ويعود به جِلْداً على عَظْم من أجل سواد عيني فتاة ولا من أجل رزقتهما . .

هذا هو الدواء: الزواج، وهو العلاج الكامل، فإن لم يكن فالتسامي وهو مسكن مؤقت، ولكنه مسكن قوي ينفع ولا يؤذي.

خطورة الاختلاط

أما ما يقوله المغفَّلون أو المفسدون:

من أن دواء هذا الفساد الاجتماعي هو تعويد الجنسين الاختلاط حتى تنكسر بالاعتياد حدة الشهوة، فقد جَرَّبت الاختلاط أُمَمُ الكُفر كلها، فما زادها إلا شهوة وفساداً . .

كلام فارغ يا بُني والله.

وما تقوله عقولهم، ولكن غرائزهم، وما يريدون إصلاح الأخلاق، ولا تقدم المرأة، ولا نشر المدنية، ولا الروح الرياضية، ولا الحياة الجامعية، إنما هي ألفاظ يتلمظون بها، ويبتدعون كل يوم جديداً منها، يهولون بها على الناس، ويروجون به لدعوتهم، وما يريدون إلا أن نُخْرج بناتنا وأخواتنا ليستمتعوا برؤية الظاهر والمخفي من أجسادهن، وينالوا الحلال والحرام من المتعة بهن، ويصاحبونهن منفردات في الأسفار، ويراقصونهن متجملات في الحفلات، وينخدع مع ذلك بعض الآباء، فيُضَحُّوا بأعراضهم ليُقال: إنهم من المتمدنين..

وبعد، **فيا بني! عليك بالزواج**، ولو أنك طالب لا تزال، فإن لم تستطعه فاعتصم بخوف الله، والانغماس في العبادة والدرس والاشتغال بالفن، وعليك بالرياضة فإنها نِعْم العلاج. اهـ[1].

من ثمرات العفَّة

يقول الشيخ أحمد الصويان: «كنت في زيارة لأحد المراكز الإسلامية في ألمانيا فرأيت فتاة متحجبة حجاباً شرعيًّا قلَّ أن يوجد في ديار الغرب؛ فحمدتُّ الله على ذلك، فأشار عليَّ أحد الإخوة

---

(١) «تربية الأولاد» لعبدالله علوان (٢/٥٨٦ ـ ٥٩١). ونقلته من «المرشد المبين في أدب البنين» لمحمد بن صالح الخزيم ص(٤١٠ ـ ٤١٦)، باختصار.

أن أسمع قصة إسلامها مباشرة من زوجها، فلما جلستُ مع زوجها قال: زوجتي ألمانية أبًا لجدٍّ، وهي طبيبة متخصصة في أمراض النساء والولادة، فأجرت عدداً من الأبحاث على كثير من المريضات اللاتي كنَّ يأتين إلى عيادتها، ثم أشار عليها أحد الأطباء المتخصصين أن تذهب إلى دولة أخرى لإتمام أبحاثها في بيئة مختلفة نسبيًا، فذهبت إلى النرويج، ومكثت فيها ثلاثة أشهر، فلم تجد شيئاً يختلف عمَّا رأته في ألمانيا، فقررت السفر للعمل لمدة سنة في السعودية.

تقول الطبيبة: فلمَّا عزمت على ذلك أخذت أقرأ عن المنطقة وتاريخها وحضارتها، فشعرت بازدراء شديد للمرأة المسلمة، وعجبت منها كيف ترضى بذُلّ الحجاب وقيوده، وكيف تصبر وهي تُمْتَهَن كل هذه الامتهان؟! ولمَّا وصلت إلى السعودية علمت أنني ملزمة بوضع عباءة سوداء على كتفي، فأحسست بضيق شديد وكأنني أضع إساراً من حديد يقيِّدني ويشلُّ من حريَّتي وكرامتي(!!)، ولكنني آثرت الاحتمال رغبة في إتمام أبحاثي العلميَّة. لبثت أعمل في العيادة أربعة أشهر متواصلة، ورأيت عدداً كبيراً من النسوة، ولكني لم أقف على مرض جنسي واحد على الإطلاق؛ فبدأت أشعر بالملل والقلق.. ثم مضت الأيام حتى أتممت الشهر السابع، وأنا على هذه الحالة، حتى خرجت ذات يوم من العيادة مغضبة ومتوترة، فسألتني إحدى الممرضات المسلمات عن سبب ذلك، فأخبرتها الخبر، فابتسمت وتمتمت

بكلام عربي لم أفهمه، فسألتها: ماذا تقولين؟! فقالت: إن ذلك ثمرة الفضيلة، وثمرة الالتزام بقول الله ـ تعالى ـ: في القرآن الكريم: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، هزَّتني هذه الآية وعرَّفتني بحقيقة غائبة عندي، وكانت تلك بداية الطريق للتعرُّف الصحيح على الإسلام، فأخذت أقرأ القرآن العظيم والسُّنَّـة النبويَّـة، حتى شرح الله صدري للإسلام، وأيقنت أن كرامة المرأة وشرفها إنما هو في حجابها وعفَّتها. . وأدركت أن أكثر ما كتب في الغرب عن الحجاب والمرأة المسلمة إنما كُتِبَ بروح غربية مستعلية لم تعرف طعم الشرف والحياء. . . !»[(١)].

الأسباب التي تُعين على الصبر على الشهواتِ

ونختم الكتاب بفصلٍ رائع للإمام ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذَكَرَ فيه الأسباب التي تُعين على الصبر على الشهوات والبُعد عنها وعدم اقتراف الفواحش، وكذلك الأسباب التي تقوي باعث الدين لدى الإنسان فتحجزه عن المعاصي والمخالفات، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لمَّا كان الصبر مأموراً به، جعل الله سبحانه أسباباً تعين عليه وتوصل إليه، وكذلك ما أمر الله سبحانه بالأمر إلا أعان عليه، ونصب له أسباباً تمدّه وتعين عليه، كما أنه ما قدَّر داءً إلا وقدَّر له دواء، وضمن الشفاء باستعماله.

---

(١) «مجلة البيان»، العدد (١٦١) ص(١٦١).

فالصبر وإن كان شاقًّا كريهاً على النفوس فتحصيله ممكن، وهو يتركب من مفردين: العلم والعمل، فمنهما تركّب جيمع الأدوية التي تُداوى بها القلوب والأبدان، فلابدَّ من جزء عِلْمي وجزء عَمَلي، فمنهما يركّب هذا الدواء، الذي هو أنفع الأدوية.

فأما الجزء العملي: فهو إدراك ما في المأمور من الخير والنفع واللذة والكمال، وإدراك ما في المحظور من الشر والضر والنقص، فإذا أدرك هذين العِلْمَين كما ينبغي وأضاف إليهما العزيمة الصادقة، والهمة العالية، والنخوة والمروءة الإنسانية، وضم هذا الجزء إلى هذا الجزء، فمتى فعل ذلك حصل له الصبر وهانت عليه مشاقّه، وحَلَتْ له مرارته، وانقلب ألمه لذةً، وقد تقدم أن الصبر مصارعةُ باعث العقل والدين لباعث الهوى والنفس، وكل متصارعَيْن أراد أن يتغلب أحدهما على الآخر، فالطريق فيه تقوية من أراد أن تكون الغلبة له ويضعف الآخر، كالحال مع القوة والمرض سواء؛ فإذا قوي باعث شهوة الوقاع المحرم وغلب بحيث لا يملك معها فَرْجَه، أو يملكه ولكن لا يملك طَرْفه، أو يملكه ولكن لا يملك قلبه، بل لا يزال يحدثه بما هناك ويعده ويمنيه ويصرفه عن حقائق الذِكْر والتفكر فيما ينفعه في دنياه وآخرته، فإذا عزم على التداوي ومقاومة هذا الداء فليضعفه أولاً بأمور:

أحدها: أن ينظر إلى مادة الشهوة فيجدها من الأغذية المحركة للشهوة، إما بنوعها أو بكميتها وكثرتها، فليحسم هذه

المادة بتقليلها، فإن لم تنحسم فليبادر إلى الصوم فإنه يضعف مجاري الشهوة ويكسر حدَّتها؛ ولاسيما إذا كان أكله وقت الفطر معتدلاً.

الثاني: أن يجتنب مُحرك الطلب وهو النظر، فليقصر لجام طرفه ما أمكنه؛ فإن داعي الإرادة والشهوة إنما يهيج بالنظر، والنظر يحرك القلب بالشهوة؛ وفي المسند عنه ﷺ: «**النظر سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس**»[١]. وهذا السهم يشرده إبليس نحو القلب ولا يصادف جُنَّة[٢] دونه؛ وليست الجنّة إلا غضّ الطرف أو التحيز والانحراف عن جهة الرمي؛ فإنه إنما يرمي هذا السهم عن قوس الصور، فإذا لم تقف على طريقها أخطأ السهمُ، وإن نصبت قلبك عرضاً فيوشك أن يقتله سهم من تلك السهام المسمومة.

الثالث: تسلية النفس بالمباح المعوض عن الحرام؛ فإن كل ما يشتهيه الطبع ففيما أباحه الله سبحانه غُنية عنه، وهذا هو الدواء النافع في حق أكثر الناس، كما أرشد إليه النبي ﷺ[٣]، **فالدواء**

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدك» (٤/ ٣١٣) وضعَّفه الذهبي. وانظر: «السلسلة الضعيفة» للألباني رقم (١٠٦٤).

(٢) جُنَّة: وقاية وسترة.

(٣) يشير إلى ما رواه جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى امرأة فأعجبته، فأتى زينب، فقضى منها حاجته وقال: «**إن المرأة تُقْبِل في صورة شيطان، وتُدْبِر في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأةً فأعجبته، فليأتِ أهله، فإن ذلك يردُّ مما في نفسه**» رواه مسلم رقم (٩) كتاب النكاح.

الأول: يشبه قطع العلف عن الدابة الجموح، وعن الكلب الضاري لإضعاف قوتهما. **والدواء الثاني**: يشبه تغييب اللحم عن الكلب، والشعير عن البهيمة، لئلا تتحرك قوتهما له عند المشاهدة، **والدواء الثالث**: يشبه إعطاءهما من الغذاء ما يميل إليه طبعهما بحسب الحاجة لتبقى معه القوة فتطيع صاحبها؛ ولا تغلب بإعطائها الزيادة على ذلك.

الرابع: التفكر في المفاسد الدنيوية المتوقعة من قضاء هذا الوطر، فإنه لو لم تكن جنة ولا نار لكان في المفاسد الدنيوية ما ينهى عن إجابة هذا الداعي، ولو تكلَّفنا عدَّها لفاقت الحصر، ولكن عين الهوى عمياء.

الخامس: الفكرة في مقابح الصورة التي تدعوه نفسه إليها إن كانت معروفة بالإجابة له ولغيره؛ فيعزُّ نفسه أن يشرب من حوض ترده الكلاب والذئاب، كما قيل:

سأتركُ وصلَكم شَرَفاً وعِزًّا ... لِخِسّةِ سائرِ الشركاءِ فيه

وقال آخر:

إذا كثرَ الذبابُ على طعامٍ ... رفعتُ يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنبُ الأسودُ ورودَ ماءٍ ... إذا كان الكلابُ يَلُغْنَ فيه

وليذكر مخالطة ريقه لريق كلّ خبيثٍ ريقهُ الداءُ الدويُّ، فإن ريق الفاسق داء.

ومَن له أدنىٰ مروءة ونخوة يأنف لنفسه من مواصلة من هذا شأنه، فإن لم تجبه نفسه إلى الإعراض ورضي بالمشاركة فلينظر

إلى ما وراء هذا اللون والجمال الظاهر من القبائح الباطنة، فإن مَن مَكَّن نفسه من فعل القبائح فنفسهُ أقبح من نفوس البهائم، فإنه لا يرضى لنفسه بذلك حيوان من الحيوانات أصلاً إلا ما يُحكى عن الخنزير، وأنه ليس في البهائم لوطي سواه، فقد رضي هذا الممكِّن من نفسه أن يكون بمنزلة الخنزير. وهذا القبح يغطي كل جمال وملاحة في الوجه والبدن، غير أن حبَّك الشيءَ يعمي ويصمُّ.

وإن كانت الصورة أنثى فقد خانت الله ورسوله وأهلها وبعلها ونفسها وأورثت ذلك لمن بعدها من ذريتها فلها نصيب من وزرهم وعارهم، ولا نسبة لجمال صورتها إلى هذا القبح ألبتة، وإذا أردت معرفة ذلك فانظر إلى القبح الذي يعلو وجه أحدهما في كبره، وكيف يقلب الله سبحانه تلك المحاسن مقابح حتى تعلو الوحشة والقبح وجهه، كما قيل شعراً.

لو فكَّر العاشقُ في منتهى حسن الذي يُسبيه لم يُسبِهِ

وتفصيل هذه الوجوه يطول جدًّا فيكفي ذكر أصولها.

أسباب الاستعصام

وأما تقويةُ باعثِ الدين فإنهه يكون بأمور:

أحدها: إجلال الله تبارك وتعالى أن يُعصىٰ وهو يَرى ويَسمع، ومَن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك ألبتة.

الثاني: مشهد محبته سبحانه فيترك معصيته محبة له، فإن المحب لمن يحب مطيع.

الثالث: مشهد النعمة والإحسان فإن الكريم لايقابل بالإساءة من أحسن إليه، وإنما يفعل هذا لئام الناس.

الرابع: مشهد الغضب والانتقام، فإن الرب تعالى إذا تمادى العبد في معصيته غضب، وإذا غضب لم يقم لغضبه شيء، فضلاً عن هذا العبد الضعيف.

الخامس: مشهد الفوات وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة، وما يحدث له بها من كل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً، ويزول عنه من الأسماء الممدوحة شرعاً وعقلاً وعرفاً.

السادس: مشهد القهر والظفر، فإن قهر الشهوة والظفر بالشيطان له حلاوة ومسرَّة وفرحة عند مَن ذاق ذلك أعظم من الظفر بعدوٍّه من الآدميين وأحلى موقعاً وأتم فرحة، وأما عاقبته فأحمد عاقبة، وهو كعاقبة شرب الدواء النافع الذي أزال داء الجسد وأعاده إلى صحته واعتداله.

السابع: مشهد العوض، وهو ما وعد الله سبحانه من تعويض مَن ترك المحارم لأجله ونهى نفسه عن هواها، وليوازنه بين العوض والمعوض، فأيهما كان أولى بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه.

الثامن: مشهد المعية وهو نوعان: معية عامة ومعية خاصة، فالعامة اطلاع الرب عليه وكونه بعينه لا تخفى عليه حاله، وقد

تقدم هذا، والمقصود هنا المعية الخاصة كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [النحل: ٦٩]. فهذه المعية الخاصة خير وأنفع في دنياه وآخرته ممن قضى وطره ونال شهوته على التمام من أول عمره إلى آخره، فكيف يؤثر عليها لذة منغَّصة منكِّدة في مدة يسيرة من العمر؟ إنما هي كأحلام نائم أو كظل زائل.

التاسع: مشهد المغافصة[1] والمعاجلة، وهو أن يخاف أن يغافصه الأجل فيأخذه الله على غِرَّة، فيحال بينه وبين ما يشتهي من لذات الآخرة، فيا لها من حسرة ما أمرَّها وما أصعبها، لكن ما يعرفها إلا من جرَّبها.

وفي بعض الكتب القديمة: يا من لايأمن على نفسه طرفة عين ولا يتم له سرور يوم، الحذر الحذر.

العاشر: مشهد البلاء والعافية، فإن البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها، والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها، فأهل البلاء هم أهل المعصية وإن عوفيت أبدانهم، وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مرضت أبدانهم.

الحادي عشر: أن يعوِّد باعث الدين ودواعيه مصارعة داعي الهوى ومقاومته على التدريج قليلاً حتى يدرك لذة الظفر، فتقوى

---

(١) المغافصة: الأخذ على غِرة.

حينئذٍ همَّته، فإن مَن ذاق لذة شيء قويت همَّته في تحصيله. ومن ترك المجاهدة بالكلية ضعف فيه باعث الدين وقوي فيه باعث الشهوة، ومتى عوَّد نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد.

الثاني عشر: كف الباطن عن حديث النفس، وإذا مرت به الخواطر نفاها ولا يؤويها ويساكنها فإنها تصير أماني، وهي رؤوس أموال المفاليس، ومتى ساكن الخواطر صارت أماني، ثم تقوى فتصير هموماً، ثم تقوى فتصير إرادات، ثم تقوى فتصير عزماً يقترن به المُراد، فدفع الخاطر الأول أسهل وأيسر من دفع أثر المقدور بعد وقوعه وترك معاودته.

الثالث عشر: قطع العلائق والأسباب التي تدعوه إلى موافقة الهوى. وليس المراد ألا يكون له هوى، بل المراد أن يصرف هواه إلى ما ينفعه، ويستعمله في تنفيذ مراد الرب تعالى، فإن ذلك يدفع عنه شر استعماله في معاصيه، فإن كل شيء من الإنسان يستعمله لله، فإن الله يقيه شر استعماله لنفسه وللشيطان، وما لا يستعمله لله استعمله لنفسه وهواه ولابد.

الرابع عشر: صرف الفكر إلى عجائب آيات الله التي ندب عباده إلى التفكر فيها، وهي آياته المتلوة وآياته المجلوة، فإذا استولى ذلك على قلبه دفع عنه مخاطرة الشيطان ومحادثته ووسواسه، وما أعظم غبن من أمكنه ألا يزال مخاطراً للرحمن وكتابه ورسوله والصحابة، فرغب عن ذلك إلى مخاطرة الشيطان من الإنس والجن، فلا غبن بعد هذا الغبن. والله المستعان.

الخامس عشر: التفكر في الدنيا وسرعة زوالها وقرب انقضائها، فلا يرضى لنفسه أن يتزوَّد منها إلى دار بقائه وخلوده أخسَّ ما فيها وأقلَّه نفعاً إلا ساقط الهمة دنيء المروءة ميت القلب.

السادس عشر: تعرّضه إلى مَن القلوب بين أُصْبُعَيه وأزِمَّة الأمور بيديه، وانتهاء كل شيء إليه على الدوام، فلعله أن يصادف أوقات النفحات، ولعله في كثرة تعرضه أن يصادف ساعة من الساعات التي لا يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه، فمن أعطي منشور الدعاء أعطي الإجابة، فإنه لو لم يرد إجابته لما ألهمه الدعاء، كما قيل:

لو لم تردْ نيلَ ما أرجو وأطلبُه من جودِ كَفِّكَ ما عوَّدتني الطلبا

السابع عشر: أن يعلم العبد بأن فيه جاذبين متضادين ومحنته بين الجاذبين؛ جاذب يجذبه إلى الرفيق الأعلى من أهل عليين، وجاذب يجذبه إلى أسفل سافلين، فكلما انقاد مع الجاذب الأعلى صعد درجة حتى ينتهي إلى حيث يليق به من المحل الأعلى، وكلما انقاد إلى الجاذب الأسفل نزل حتى ينتهي إلى موضعه من سِجِّين.

الثامن عشر: أن يعلم العبد أن تفريغ المحل شرط لنزول غيث الرحمة، وتنقيته من الدغل شرط لكمال الزرع، فمتى لم يفرغ المحل لم يصادف غيثُ الرحمة محلاًّ قابلاً ينزل فيه، وإن فرغه حتى أصابه غيث الرحمة، ولكنه لم ينقِّه من الدغل لم يكن الزرع زرعاً كاملاً، بل ربما غلب الدغل على الزرع فكان الحكم له.

ولو فرّغ العبد المحلَّ وهيأه وأصلحه لرأى العجائب، فإن فضل الله لا يردّه إلا المانع في العبد، فلو زال ذلك المانع لسارع إليه الفضل من كل صوب.

التاسع عشر: أن يعلم العبد أن الله سبحانه خلقه لبقاءٍ لا فناء له، ولِعِزٍّ لا ذلَّ معه، وأمن لا خوف فيه، وغناء لا فقر معه، ولذة لا ألم معها، وكمال لا نقص فيه، وامتحنه في هذه الدار بالبقاء الذي يسرع إليه الفناء، والعز الذي يقارنه الذل ويعقبه الذل، والأمن الذي معه الخوف وبعده الخوف. وكذلك الغناء واللذة والفرح والسرور والنعيم الذي هنا مشوب بضده، لأنه يتعقبه ضدّه وهو سريع الزوال، فغلط أكثر الخلق في هذا المقام إذ طلبوا النعيم والبقاء والعزَّ والملك والجاه في غير محلِّه ففاتهم في محلِّه، وأكثرهم لم يظفر بما طلبه من ذلك، والذي ظفر به إنما هو متاع قليل والزوال قريب فإنه سريع الزوال عنه؛ والرسل صلوات الله وسلامه عليهم إما جاؤوا بالدعوة إلى النعيم المقيم والملك الكبير، فمن أجابهم حصل له ألذ ما في الدنيا وأطيبه، فكان عيشه فيها أطيب من عيش الملوك فمن دونهم.

العشرون: أن لا يغترَّ العبد باعتقاده أن مجرد العلم بما ذكرنا كاف في حصول المقصود، بل لابد أن يضيف إليه بذل الجهد في استعماله، واستفراغ الوسع والطاقة فيه[١].

---

(١) «عدة الصابرين» ص(٦٣ ـ ٧١) باختصار.

فهرس المحتوى

الموضوع — الصفحة

* * *